تكهنات لا تخطئ

مجموعة قصصيّة

عادل إبراهيم علي حنزولي

تكهنات لا تخطىء

"هذه المرّة لن تخطئ تكهناتي، في المرّة السابقة منعتني مباراة واحدة من الفوز. لولاها لأصبحت الآن من أصحاب الملايين.. حظّ، كل شيء حظ.. أعرف من فاز باللّعبة بورقة واحدة، ولم تكن له أيّة دراية بالكرة ولا بأمورها. وكان مفلسا تماما والآن أصبح من أصحاب الملايين، وأصبحت له سيارة وجوّال يرنّ كالمسجّل.. فهل سأفوز هذه المرّة؟ لقد كانت تكهناتي جدّ منطقيّة فالفرق الكبرى لا يجوز أن تنهزم على أرضها والفرق الأقلّ شأنا لا يجوز لها الفوز خارج ملاعبها.."

الكرة لا أحد يؤمّنها.. الكرة هي الدنيا، والدنيا كالكرة متقلّبة ودائريّة.. ليس بالكرة أمان كما دنياه ليس بها أمان. لقد كان يحلم أن يصبح أستاذا أو مهندسا، ولكنّه انتهى إلى عامل بناء بسيط بأجر متقطّع داخل عالم متقلّب ليس له فيه سوى ذراع فولاذي تنهشه السجائر، وأمّ ينهشها المرض..

- سيّدتي أميّ تحتاج الدواء، وأنا أحتاج السجائر.. وأنا لا أطلب شيئا ليس لي.. أنا لا أطلب صدقة. أنا أطلب حقيّ. أريد أجر عملي يا سيدتي..

- قدّر ظروفي كما تقدّر ظروفك. افهمني كما أفهمك. خذ.. والباقي على أقساط.

"الباقي على أقساط.. الويل لك إن كنت تحاولين خداعي.. إن كنت محتالة أو "قلاّبة" فإني سأهدّ ما بنيت، وإن كنت من أصحاب المعارف و"الأكتاف" فذلك لا يهمّني في شيء.. ليس لي ما أخسره.. ليس لي إلا جسدي. لا يهمّني إن نخرته السجون بضعة شهور. فذلك أرحم من كسر الحجر وخلط الإسمنت.. أرحم من انتظار الأجر المتقطّع وتكرّم المشغّل..

لكني متأكّد من الفوز هذه المرّة.. فما أعطته لي السيّدة وهو نصف أجري، كنت قد لعبت بربعه. فكيف لا أفوز أنا الذي كنت على وشك الفوز بقصاصة واحدة؟ أكيد أنّي سأفوز.. ولكن ماذا تبقّى من المال الآن.. ربع لأجل أمّي وربعين لي.. سأنفقهما، لن أدّخر شيئا منهما! ولا ملّيم، كلّه ينتهي ليلة الاثنين!!"

×××××

- ماذا قلت؟ أنا أسكر؟ تريدني أن أسكر
- ولماذا لا تسكر هل يعجبك وضعك.. لن تقنعني بأنّك صرت متديّنا
- أسكر ولم لا؟ مادمت سأصبح من أصحاب الملايين، ثلاثة أيام فقط وأنسى الفقر تماما.. إذن سأعربد تماما وأستمتع بوقتي تماما..

سنوات لم أذقها إليّ بها.. أريد أن أحضنها الليلة.. أريدها أن تبيت داخل جوفي..

كانت الساعة تشير إلى السابعة مساءً حينما أنهى العمل.. لعن مشغّله في داخله قائلا:" يومان ويتغيّر الأمر.. يومان وأنزع رداء الذلّ إلى الأبد.." أمّا الآن في الثامنة فقد دلف إلى الحانة الّتي غاب عنها طويلا.. دخلها وسرعان ما استأنس بجوّها..

- جعة أم شراب
- الاثنان يا نديم الاثنان. لِمَ أحرم نفسي.. الجعة منشّطة والشراب يجعلنا ننسى تماما.. هيا أطلب ولا تخف من الحساب.. كلّه على حسابي..

أثّث الطاولة بالزجاجات، وبعض أنواع الفواكه ونسي العالم.. يا للسّعادة التي تحمله.. سنوات يا عامل البناء لم تنتش كالليلة..

كنت قد نسيت هذا العالم المرح، وتركته للأسياد. والآن تعود معربدا.. ألأنّك ستصبح سيّدا مثلهم؟ كيف سينظر الناس إليك؟ كيف سينظر مؤجّروك وسادة عملك؟ ستصبح سي فلان.. تركب سيّارة فاخرة ويكون لك جوّال كالمسجّل أو كالكاميرا.. هيّا إذن اشرب ولا تهتمّ..

"كنت مشتاقا إليها.. شربت وشربت حتى سكرت، وخرجت أترنّح.. عربدت كمراهق، وضحكت ملئ شدقيّ. كان رفيقي عابثا وماجنا.. اعترضتنا فتاة ممتلئة.. كنت مثمولا فلم أتبيّن درجة جمالها، لكنّها بدت لي فاتنة.."

- يا عسل.. يا فلّ.. يا بصل
- يا ابنة العاهرة، من أنت حتى لا تأبهين لنا

"رمقت مؤجّري، اعترضنا وضحك.. وسرعان ما أمسك رفيقي بتلابيب قميصه.."

- تضحك منّا أيّها الملعون
- دعني يا بعوضة قبل أن أهشّم أنفك
- دعه يا "معلّم".. إنّه رجل مرموق
- أنت اعتبر نفسك مفصولا
- ماذا؟ من أنت حتى تفصلني؟ ثمّ تفصلني عن ماذا؟ عن العمل معك.. غدا ستأتي لتبوس يدي، علّني أشغّلك عندي، أو أقرضك بعض المال.. هيّا يا معلّم أركله.. حطّم أنفه ووجهه..

×××××

"كانت ليلة سيّئة.. لا أعرف كيف طاوعت نفسي وسكرت.. لكن لا بأس المهمّ هو أن أربح ليلة الغد.. لا بأس سيمرّ السبت ويأتي الغد بسرعة.. لن أعمل هذا اليوم.. سألهو. لا يزال في جيبي بضعة مال.. علبة سجائر فاخرة أوّلا، لأوّل مرّة وليس لآخر مرّة.. سأجلس هنا على حافّة

الشارع في هذا المقهى المختلط طبعا.. سأطلب قهوة حلوة.. حلوة من فضلك لأوّل مرّة.. لا لن أشربها مرّة هذا اليوم.. يجب أن أبدأ التغيير من الآن.."

دخل المقهى المختلط لأوّل مرّة، بدأت عيناه تنصرفان إلى العيون الملوّنة لأوّل مرّة منذ عهد، والشفاه الحمراء والنهود والأفخاذ والأرداف.. كان يتابعها دون أمل ودون طمع أمّا الآن فهو يطمع.. يطمع..

- سجائر فاخرة.. قهوة حلوة.. لباس جديد.. لعلّك ستتزوّج؟ تتزوّج؟ ولكن بأيّ مال؟ إنّك تنظر.. أنظر إذن. أفخاذ نهود شفاه.. أنظر لمجرّد النّظر فقط..
- ولماذا لأجل النّظر فقط؟ غدا سترى بعينيك.. ستلمحهنّ يتسابقن من أجل الفوز برحلة معي.. سترى تغيّر كلّ شيء.. أنا واثق هذه المرّة من الفوز.. لن يخيب ظنّي..

"أعرف أنّ الحبّ ممتع.. أعرف لذّة اللّقاء مع الأنثى.. لكنّي نسيته منذ مات والدي، منذ أن صارت أمّي طريحة الفراش.. منذ أن تخلّيت عن الباكالوريا وأصبحت عاملا.. أمّا الآن فإني سأعيد كلّ تلك الأيّام.. سأعود إلى الأنثى وإلى حرارة اللقاء معها.. وأنت أيّتها العجوز، سوف تستردّين عافيتك وتعودين شابّة.. شابّة تماما.. إذن سأدخّن سيجارة.."

×××××

"هذا هو اليوم الموعود، إنّه الأحد يا أحد. وداعا يا حياتي البائسة، لن أبقى وفيّا لتلك الأيّام.. معي خمس قصاصات، عندي كل الاحتمالات.. لن تخرج النتائج عمّا سطّرت. كلّ شيء منطقي أليس كذلك؟.. إنّ الأمور إلى حدّ الآن جيّدة.. وإذن.. بدأت أتوتّر سآخذ النتائج من التلفاز ثمّ أفرز برويّة وعقل.. فائز وحيد؟ لاشكّ أنّه أنا.. لا شكّ في ذلك والمبلغ كم؟ كم؟ نصف مليار؟ لا لا إنّه شيء يفوق الوصف.. وداعا أيّها الفقر الكافر..

سأبدأ الآن بفرز أعمدتي.. هذه قصاصة بائرة.. هناك عمود.. اثنان.. صحيحان.. لا لا لديّ عمودان فائزان.. أنا هو إذن.. جيّد إذ كنت أنا.. ذلك ما توقّعته.. احتمالاتي كلّها منطقيّة.. لا مجال للصدفة.. أنفق المال تنال الحظّ السّعيد.. صرت من أصحاب الملايين.. ألم أقلّكم؟ لم يذهب إذن تعبي سدى.. جيبي مفلس الآن.. كيف لا وأنا العائث فسادا ليومين.. وبقيت بلا عمل ليومين.. وهذه اللّيلة ذاتها.. جلبت اللحم والمشروبات والفواكه والحلويات.. لقد كانت حفلة بأتمّ معنى الكلمة، فقد كنت واثقا من الفوز"

"رائع جدّا، إذن يكفي أن أسلّم هذه القصاصة حتّى أصبح مليونيرا.."

تناول القصاصات البائرة ليتلفها، فوجد بينها قصاصة رسميّة لم تسلّم.." ماذا؟ لمَ لم أسلّم هذه القصاصة؟ لا بأس.. لا بدّ أنّك خاسرة.. لكن سأتثبّت.. غير معقول.. الفائزة؟ لمْ أسلّم الفائزة؟ آه لست أنا الفائز إذن؟ كان عليّ أن أعرف أنّي ملعون.. سجائر فاخرة، حفلة وعربدة.. من أين

سأنفق الآن وقد خسرت كلّ شيء خلال ثلاثة أيّام؟ من سيشغّلني الآن وقد خاصمت الجميع..؟
كيف فاتتني هذه.. كيف نسيت أنّ حظي في سطل الإسمنت..؟ ليلة الجمعة 16-12 – 2005

التائه

أسرف في الشرب حتى ثمل، لكنّه لم يكفّ حتى أغلقت الحانة، ورماه صاحبها خارج أبوابها.. وهام على وجهه فجرا، بينما كانت أنفار النّاس تمضي إلى الصلاة. فتحت دكاكين ومتاجر، وأطلّت خيوط الفجر، ولم يكن ليعنيه ذلك.. مضى في الطريق بلا طريق كأنّما اجتثّ من الأرض جذعا ما له من مأوى وما له من سبيل. أو كالسّراب يلاحق السّراب.. ولم تكن قدماه بقادرة على حمله أكثر ممّا سار مترنّحا، فارتمى على التّراب وقد ضاقت نفسه بأناه. وكم تمنّى ساعتها لو ينطلق في الأرض ساعيا منتهيا غير منته، حتى يفنى أو ينسى كلّ الهمّ أو بعضه.. لكنّ شعوره بالتّعب ألجم شعوره بالخيبة تماما فتبدّت له نفسه في ثقل الأرض وخفّة الهواء في آن.. شعور غريب خامره حينما كانت الأوجاع تحيط به من كلّ جانب فأغمض عينيه مستسلما لدوران خفيّ ابتعد به عن عالم التعب إلى عوالم الخفّة والصفاء.. مثقلا ومتعبا بعث من نومه على خيوط شمس حارقة ولغو كثير مزعج..

- الله يسترنا
- عشنا وشفنا

فتح عينيه بصعوبة ليجد جمعا يحملق فيه متعجّبا فانزعج. وبسرعة سوّى من هندامه ونهض تاركا الجمع في ذهول..

××××××××××××××××××××××××××××××××××××××

سار حتى ولج المقهى فعاجله النادل:

- قهوة، شاي، أم مشروب؟
- قهوة مرّة

فصدع النادل بصوت عال:" قهوة مرّة للسكران.." فيثور الرجل على وهنه ويمسك بتلابيب قميص النادل ويهمّ بضربه لولا تدخّل حريف مقرّب فيفكّ النزاع..

- إنّه لا يقصد الإهانة
- لم يبق إلا أن يقصد هذا الوضيع
- أعتذر. أردت المزاح فقط
- ائتني بالقهوة والشاي وأصمت
- لم أعد أريدها

- بل تريدها. ستشربها معي، هل لك في سيجارة؟

تناول السيجارة بلهفة ثم سرعان ما عاد إلى بروده، ولم يكلّف نفسه حتى الشكر كأنما هي مروءة واجبة من جليسه. وجاءت القهوة فنقع فيها دون مبالاة بمرارتها، ونفث دخانه سارحا وراءه غير مبال بجليسه حتى بادره:

- أليست شديدة المرارة؟
- ما هي؟
- القهوة
- ليست بأمرّ من الحياة
- ألهذه الدرجة تضيق بها؟
- بل هي التي تضيق بي
- إلى هذا الحدّ وصل بك اليأس؟
- لست أنا بل هم.. هم الذين يئسوا مني
- من تعني؟
- والدي والبقيّة..
- ماذا يريدون منك؟

صمت وطلب سيجارة أخرى بإيماءة دون أن يتكلّم، فعاجله بها وهتف:

- زواج، عمل، استقلال؟
- .. كلّ ذلك، ولكنّي لا أستطيع منه شيئا
- والحبّ..
- مالي وذاك؟ لهو قديم نسيته..
- نسيته وقد تجاوزت الثلاثين؟
- لا أدري.. ربّما هو الذي نسيني، ثمّ بأيّ حقّ تسألني عن الحبّ؟ هل الحبّ لأمثالي..
- الحبّ حقّ لجميع النّاس، الحبّ قبل الخبز أحيانا
- الحبّ قبل الخبز أحيانا..
- لماذا تردّد بحنق؟
- بردت قهوتي.. كيف أحبّ وأنا أتمعش من إرهاب النّاس ومدّ يدي كالشحاذ..

الشيخ علوان رجل تقيّ، يجلس في المقهى لساعات فينصرف إليه حديث الناس، فيحفظه ويردّده في مجالس كثيرة غير المقهى.. وقد انصرف إليه الآن بعض من أحاديث الشابين فيهرع إليهما ويجلس دون استئذان، ثمّ يبادر بالسلام فيمتعض السكران من منظره المهيب ويقدّمه الرفيق:

- الشيخ علوان رجل بركة وطهر
- أهلا يا شيخ
- عذرا إن كنت جالستكما دون استئذان، ولكنّ حديثكما في الحياة جذبني. فأتيت لعلّكما تجدان في حديثي ما يسرّكما..

قال السكران:" أو في حديثنا ما يحزنك.."

- لا بأس إن حزنت وسررتما
- كلّك حكمة وبركة يا شيخ
- يا إخوتي، ليست الحياة حياة إلا متى كانت لله في الله، ربّيا نفسيكما على الاستقامة تنالا خير الدنيا والآخرة

قال السكران:" أمّا الدنيا فقد علمنا خيرها، وأفاضت علينا منه. وأمّا الآخرة فتتبع أولاها.."

- صاحبي منزعج من الحياة وبؤسها
- ارض بما قدّر الله لك يرضى الله عنك
- هل قدّر الله لي الخيبة أينما حللت
- ادع الله يزيل ما بك من همّ، فكلّ شيء بأمره يكون. يقول للشيء كن فيكون..
- قد دعوت وما استجيب لي
- أستغفر الله.. مأكلك حرام، وملبسك وعيشك حرام، فأنّى يستجاب لك؟
- وكيف آتي بالحلال.. والأبواب مقفلة
- تب يفتح الله عليك
- أتوب وأنا جائع
- تب يفتح الله عليك
- قصد صاحبي أن يقول أرني طريقا يفتح حتى أتجه إليه
- إنّما الله يرشد فأسأله الرشد
- .....
- إنّما أنت تائه فعد إلى الطريق تجد الخير بالطريق

- .....
- ألا تحبّ أن تبدأ؟
- وكيف أبدأ؟
- ابدأ بإتباعي..

يأخذ بيده ويهمّان بالانصراف فيقول صاحبه:" ألا تريد سيجارة؟" ...

29- 05 – 2006

أحلام طفوليّة

حدّقت في ساعتها مليّا، اضطربت يداها، ارتعشت أصابعها، دقّ قلبها سريعا أكثر من كلّ المرّات الفائتة.. جال بصرها داخل الغرفة كأنّما تبحث عن شيء ما.. شيء ضاع منذ زمن.. تحتاجه ولا تجده.. شغلت المسجّل دون أن تعير الأغنية اهتماما كبيرا.. التفتت إلى دولاب ملابسها.. نهضت من كرسيّها.. حدّقت في كلّ الفساتين ولم تجد فستانا يليق بهذا اللقاء غير أنّه هناك غير بعيد في جهة ما، تراءى لها فستان مطوي بعناية. آه انه فستان أول مرة، من الجيّد أن تجده.. فستان أحمر يليق بطفلة.. خبّأته من سنوات منذ أن التقته أوّل مرّة قبل خمس سنوات ورأت من المناسب أن تلبسه مادام كلّ شيء يعود بها إلى عهد قديم جميل.. وضعته هناك على الكنبة الخشبيّة القديمة. أقفلت الدولاب وعادت إلى مكانها لتفتح ملفّا آخر.. ألبوم صور وذكريات، معه طبعا.. كان هذا قبل أربع سنوات آخر عهد معه بعد أن تركها وسافر. وبقيت هي تنتظر.. تنتظر عودته ليتحقق شيء ما حلمت به وشاهدته في كل مكان، هنا وفي السينما.. لقاء بعد فراق وزواج سعيد..

هكذا تبدّى لها الأمر قبل ساعتين من اللقاء. وصحت مع الصور ذكريات سنة البدء، سنة مليئة بالأشياء الجميلة الّتي لا تنسى.. سنة اللقاءات والأحلام الرومانسيّة الغالية، وأربع سنوات كاملة من الفراق.. لم يطل بها المكوث بل سارعت إلى الفستان فارتدته وظلت تحدّق في المرآة طويلا.. قوام ممشوق وجمال أخاذ، عينان واسعتان وشفتان منتفختان، وجه مشرئب بحمرة، وشعر غجري طويل يلهث وراءها، وقد أسدل غطاءه عليها فزادها جمالا.. هي حقّا جميلة، ولا شكّ أنّ سنوات الانتظار الأربع لن تذهب هدرا، ولا شكّ أنّها ستنال أجر تعب السنين ورفضها لخطيبين عزيزين..

هو الآن ليس شابّا طائشا إنّه يعرف ما يفعل. لا شكّ أنّه عاد ليجدّد الودّ، ولا شكّ أنّ الشوق إليها وإلى الحب قد هدّه.. لماذا إذن يستدعيها إلى المكان الذي تعوّدت أن تلقاه فيه؟ هو الآن جاهز لفعل جاد. فعل حلمت به وانتظرته طويلا وتأكّدت أنّه لا بدّ حاصل حال عودته.. والرجل حبيب الأمس ثري، وجيوبه ملأى.. فهو أحد رجال المال الجدد المرموقين كما وصلها ممن يعرفه. وهي فتاة ليس لها عدا شهادة جامعيّة لا تنفعها وسنوات تجري.. فهل يكون الحلم؟

×××××

المكان؛ مقهى منزو بعيد عن صخب المدينة، ولهو اللاهين. ورواده أناس منعزلون، وقد تجرّدوا من أتعابهم وهمومهم ورموا بها في جوف هذا المكان وتحدثوا بها إلى سجائرهم وإلى طاولاتهم الصامتة وإلى البحر قبالتهم كأنّما يمسح موجه طبقات سواد أيامهم وضياع أحلامهم..

وصلت إلى المقهى الذي ألفته وكأنّها كانت تزوره كلّ يوم فهو لا يفارق مخيّلتها، كيف لا وهو مهد الأحلام والأماني الطفولية اللذيذة؟ وهو مهد اللقاء الأول مع الحب والأحلام؟

اتّخذت مكانا واعتدلت في جلستها، ولم يكن من الذكاء أن تعرف أنّ حبيبها تأخّر وأنّ الناس تغيّروا كما الأيّام تتغيّر كما المكان تغيّر.. كلّ شيء الآن تغيّر، إلّا هي الّتي ما تزال تحتفظ باندفاعها الطفولي تجاه أشيائها الجميلة.. أليس به شوقها؟ ألا يعلم كم أتعبها انتظار السنين؟

على كلّ لا بأس، بضع دقائق ويأتي. لن يتأخّر كثيرا عن الموعد فليس ذلك من عادته. هو لا بدّ عن قريب آت..

طلبت قهوة وعادت مع الذكريات.. ذكريات المكان الذي لم يتغيّر في نظرها، رغم ما بدا على حيطانه من نقوش ومن طلاء، ومن تغيير في أثاثه. ولهذا المكان صورة في ذاكرتها أجمل من كلّ الصور التي عَلقَت ولم تعلق..

ارتشفت رشفات من القهوة وأطرقت حينما سيطر عليها اضطراب وقلق.. برغم دأب ضجيج الناس، وأغنية هادئة تلطّف الجو المختنق بالدخان والهموم والأوهام.. وأطلّ وجه في الظلام. لم تنتبه إلّا وهو يجثم أمام طاولتها ويحييها بابتسامة لطيفة. وبسرعة انتبهت لنفسها حتى ضاعت منها وسط الشوق الذي اعتراها فاضطربت يداها واختلج فؤادها ودقّ قلبها سريعا حتى تسارع الدم حارقا إلى وجنتيها معلنا حالة طوارئ عاطفيّة تعود بها سنوات إلى الوراء.. ماذا تفعل؟ تقوم لتحضنه.. تحييه بابتسامة باهتة.. تبكي.. تضحك..

ووسط هذا الذهول والاضطراب، كان هو قد جلس وطلب قهوة وبسرعة تناول يديها بين يديه وضغط:

- ألم تشتاق إليّ ؟
- بي شوق بحجم السنين
- إليّ ؟
- .....
- إلى الحبّ
- .....

- آسف، آسف.. أعرف أنّه لا وقت لمثل هذا الكلام
- .. لا وقت
- نعم. هناك ما أهمّ
- أهمّ ؟
- أجل.. العمل.. هل هناك أهمّ من العمل..
- لا شيء أهمّ
- أنا لا أنسى أحبّائي.. نحن نرحّب بك في مشروعنا
- .....
- لمَ هذا الاستغراب؟ أنت صاحبة إجازة
- .....
- إذن ستأتين ؟
- طبعا.. طبعا. سأكون معكم..

××××××××××××××××××××××××××××××

طال حديثه عن العمل والنظام والأجر. وكانت شاردة كأنها لا تسمعه.. والرسالة واضحة؛ ليس الوقت وقت الفستان الأحمر والمكان الرومانسي والأغنية. الكلّ كبر وبقيت هي بأحلام طفوليّة بائسة..

انتهى اللقاء وغادرا المكان، وقال لها برفقه المعتاد:

- "اتحبش نوصلك؟"
- "لا، نعرف ثنيتي وحدي.."

وفي الغرفة أنيسة وحدتها بكت، بكت بكاء مرّا. وأدركت أن أحلامها كأحلام السّجين، لعنت خطاها والفستان والسنين.. لعنت في داخلها الجميع وعرفت أنّها كائن ضائع..

الخميس 23-02-2006

عزباء الأربعين

.. هل فاتني القطار؟

ولكني يا سيدي تعودّت أن آخذ قطار السادسة كلّ صباح، ولا أراني تأخرت عن الموعد. فكيف أفلت عليّ هذا اليوم؟ أتراني أخطأت الموعد؟

- سيّدتي، لا تقلقي. ربع ساعة ويأتي قطار السادسة والرّبع .. لو كنت أسرعت قليلا. لكن لا بأس.. هل أقطع لك تذكرة العادة؟

"ربع ساعة وما يضرّ إن تأخرت ربع ساعة.. هل ستقوم الدنيا ولا تقعد.. هل يطردونني.. حسنا إن فعلوا.. لكن كيف أغالب هذا الانتظار.."

أشعلت سيجارة وامتطت خيالها.. تخيّلت نفسها عروسا في ثوب ملائكي أبيض.. كانت تهاني المدعوين، وزغردة العجائز تملأ أذنيها.. أحلام لم يقطعها سوى صفارة القطار المؤذنة بالتوقف. والتفتت فإذا أحلامها تسافر هاربة مع الدخان..

ركبت ولم يتسنّى لها معاودة الحلم إلّا وقد اتّخذت مكانا مع الجالسين. هناك وجدت رغم الزحام وقتا للانصراف عن الناس إلى أحلامها وشرود خيالها.. هناك حيث بقيت مشتتة البال بين الغد المأمول والناس.. هامات فارعة ووجوه قزحية اختلفت وتباينت من السمرة إلى البياض، ومن الحمرة إلى الشحوب..

لم يكن ذلك ليسترعي نظرها فلقد ألفته. إذ هي تعوّدت كل صباح أن تلمح تلك الوجوه القزحية المختلفة، وكأنّ الجميع مثلها قد ألف الأمر فلا أحد تراه يهتمّ للآخر أو يسأل عنه وعن شأنه. فلكلّ منهم شأن يغنيه عن السؤال أو المتابعة. بل الانشغال أشدّ الانشغال بمحاولة الظفر بمقعد في هذا الجو الصباحي الغائم البارد. وهو صباح شتائي ألفت هواءه اللافح وألفته أصابع يديها أيضا فتورّمت واخشوشنت على غير العادة.. وهي إذ تلتحق بمقرّ عملها كمنظفة، لا شكّ تلحظ الفرق الشاسع بينها وبين غيرها من الموظفات صاحبات العمل الأكثر احتراما.. فهنّ لا تنتفخ أصابعهن ولا تتورّم لأنهنّ لا ينهين نومهن مع الرابعة فجرا.. هنّ لا يلتحقن بعملهنّ في السابعة. هنّ لسن بمسؤولات عن إخوة يتامى عجّز، ولا يوجد في بيوتهنّ عجوز قعيد بائس لا يجيد غير التّبجّح بأحاديث عن الماضي والثناء على الأيام الخوالي.. من أجل ذلك كانت أيديهنّ ناعمات، وكانت وجوههنّ مرتعا للمساحيق وشفاههنّ ملوّنة.. ومن أجل ذلك كان

وجهها مقطّبا كالرجال رغم إنبائه عن ملامح أنوثة دفينة وجمال قديم. ومن أجل ذلك مرّ قطار العمر ولم تفطن بالسنين تسرق منها إلّا وهي على أعتاب الأربعين..

واليوم، يوم كبقيّة الأيّام؛ القيام باكرا وركوب القطار من أجل الالتحاق بالعمل المضني ومطاردة الأحلام الّتي تفرّ هاربة مع الدّخان..

××××××××××××××××××××××××××××××××

.. أتمانعين؟

- تفضّل، وفيم يضايقني ذلك..

اعتدل وجلس.. لم يكن له هو الآخر وقتا ليهدره في السؤال. كان لكلّ منهما أمرا يشغله.. لكن شيئا ما جذبه للحديث:

- يخيّل إليّ أنّي أعرفك
- المعذرة.. ذاكرتي ضعيفة، يحتمل أن تكون قد رأيتني في القطار. فأنا متعوّدة على أخذه يوميّا..
- احتمال وارد، رغم أني لست من روّاد القطار. أ تعلمين سيّدتي..

وتنطلق الدردشات التي لا تنتهي. كأنّ شيئا ما يدفعهما إلى الكلام.. حديث يطول ويتشعّب، لا يقطعه إلا توقف القطار..

- أتمنى أن أراك مجدّدا..
- يفعل الله ما يشاء..

" هيّا.. هيّا عزيزتي العانس لا تسرحي كثيرا. هناك عمل يجب الالتحاق به.." وتحثّ الخطى وتدلف إلى مكان تعوّدت عليه، وتعوّدت لأجله العبارات المنمّقة والسلوكات الطائعة.. دوامة من الأحداث الروتينيّة، لكنّها تسأل في خضم ذلك متى ستراه؟

××××××××××××××××××××××××××××××××

يا الله عمّا حدث البارحة.. لقد أوقفوا العمل وحققوا وأعادوا، ولم يجدوا دليلا واحدا يبين جانبا من الحقيقة.. من قتل سيادة المدير؟ لقد وجدوه ملقى في مكتبه، مخضّبا بدمائه.. وفجأة توقّف كل شيء بالنسبة لها. حتى قطار السادسة لم تعد تنتظره فهم قد أوقفوا العمل حتى ينتهي التحقيق ويأتوا بمدير جديد.. المصنع المثالي في النظام والترتيب ينقلب إلى ساحة فوضى غريبة تملأ كل أرجاءه.. كان

التحقيق جادا ومرعبا وشمل كلّ الموظفين لكنهم لم يعثروا على شيء.. فلا آثار لبصمات ولا وجود لأداة جريمة إذ كان الجاني قد تدبّر أمره بعناية فائقة.. وتمرّ الأيام ليعود كل شيء إلى طبيعته وأصله.. كلّ شيء هدأ، حتى القضية ذاتها حفظت وسجلت ضدّ مجهول.. لم يعد أحد يتكلّم عن القضية، فالكلّ مركّز في عمله الآن. والمدير الجديد يطالب بالجدية والانضباط.. إنّه أكثر نقمة وأشدّ لعنة على العمال ومع ذلك فكل شيء الآن على ما يرام..

شيء واحد لم يفهم؛ اختفت عزباء الأربعين ولم تعد إلى العمل بعد أسبوع من الجريمة ومن استيفاء التحقيقات معها.. لكن لا أحد يهتمّ لسر هذا الاختفاء لأنّ الباحثات عن عمل بالآلاف..

××××××××××××××××××××××××××××××××××

- .. هذه قضية حفظت، هل من جديد تقدمينه فيها؟
- أجل سيّدي، أنا.. أنا هي قاتلة السيد المدير.. قتلته لأنّ القطار فاتني.. أقصد قطار السادسة.. لأنّه جالسني فيه ولم أعرفه.. لأننا التقينا صدفة أخرى في العمل.. لأنه وعد ولم يفعل.. بل ضحك لأجل.. أعتاب الأربعين.. أنت تفهم ذلك يا سيدي.. لا داعي للشرح..
- فعلا، لا داعي للشرح الآن.. أتفهمك جيّدا فأنت تركبين قطار السادسة في الأربعين..

الثلاثاء 20- 09 – 2005

السكين

انسللت بين الناس كما ينسلّ السكين في الأحشاء.. الأحشاء؟ أنا أيضا كانت لي أحشاء لم أكن أعرف ما بداخلها. لكن شعور الوحدة المميت كان كافيا لإثارة الضجر..

انسللت بين الناس وعدوت مسرعا إلى بيتي، أعددت قهوة وجلست أفكّر.. لماذا فأفأ الحارس الليلي وتلعثم؟ ساعتها لم أكن لأدري أنّه يخفي سرّا خطيرا.. لكني خمنت، وتخميني عادة لا يخطأ أنّه رجل غير عادي.. لا أعني طبعا تميّزه أو تفرّده. لكنّ الواقع أنّه بدا لي مرتعبا من أمر ما.. أكيد أنّ هناك أمر ما بل أمور كثيرة تمنع ذلك الرجل من الكلام..

هذا الشخص السمين الضخم، لماذا يخيّل إليّ أنّه كاذب؟ وهو بالفعل كاذب.. هذا ما أكّدته الوقائع. لقد هدّده قاتل السيدة إن هو قال شيئا في التحقيق، أي شيء فإنّ نهايته ستكون الموت.

الموت؟ ذلك ما كشف عنه الحارس الليلي أخيرا. لقد اعترف بصدق ولم يتلعثم بل بكى بحرقة الوفي والشريف..

- سيدي المحقق، لقد رأيته يخرج لاهثا من عندها.. كانت جميع الأضواء مطفأة إلا بيت السيدة، ومن بيتها نزل لاهثا، هدّدني بالسكين ذاتها التي قتلت بها السيدة.. قال إنّه سيقتلني إن أنا تفوهت بشيء. كان ملثّما يميل إلى النحول.. لقد أخافني فكذبت، قلت إنّي لم أر شيئا. كنت نائما. فلم أشعر بشيء. لكني كنت كاذبا..

اكتفى حارس العمارة بهذه الأقوال التي أبانت جانبا من الحقيقة. سكت محملقا في الشخوص حوله كأنّه يريد أن يقول شيئا عجز عن قوله لسانه. كأنّه يقول ارحموني أو فلتأخذوا حق السيدة الفاضلة التي طالما أحسنت إليّ..

لكنّها في الحقيقة لم تكن سيّدة فاضلة البتّة، كنت أعتقد أنّي الوحيد الذي يعرف حقيقة هذه المرأة الّتي لعبت دور راقصة. وأنا في الحقيقة أتحدّث عن الراقصة لا عن السيدة الممثلة التي تقمّصت دور راقصة، وإن كنت أراها منها جرأة كبيرة.. راقصة أيّتها الممثلة العظيمة؟

أمّا أنا، فبعد أن انسللت وسط الناس عائدا إلى بيتي وبعد مشاهدتي للفيلم. لم أعد أشعر بالضجر مطلقا بل إني تفاعلت وسمحت لجميع جوارحي وأعصابي أن تتماهى معه..

لكني أرى مع ذلك أنّه فيلم سخيف. فالحكاية ممجوجة وطرقت آلاف المرات فلماذا يصرون على إزعاجنا بها؟ إنّها تنسلّ داخل أحشائي كالسكين..

في حيّنا الصغير هذا حصلت حكاية مشابهة إذ كانت تسكنه امرأة لم تكن سمعتها جيّدة في الحقيقة وقتلت في ظروف غامضة ولم يتوصّلوا إلى القتلة إلّا بعد جهد أمني عظيم، تدركون ذلك؟ لكن ما فائدة إزعاجكم بمثل هذه الحكايات المتشابهة : القتل والسكين وسوء السمعة، أمور عادية أليس كذلك؟

آه لقد بردت قهوتي.. سأعدّ قهوة أخرى لأشربها ساخنة وأشاهد فيلما آخر أكثر إمتاعا أو أقلّ إمتاعا لا يهمّ. المهمّ أن أفعل شيئا يسليني.. السكين، السكين.. أين السكين؟

2008/02/15

مرزوق العيد

كان مرزوق رجلا ولا كلّ الرجال كما يقال، يهبّ بساعده الفولاذي لنجدة الجميع. كان إذن لمرزوق ساعد فولاذيّ، جعل كلّ الناس تحبّه لأجله.. مرزوق لم يتعلّم، كان والده فقيرا. ولأجل ذلك وغير ذلك، لم يتعلّم مرزوق عدا بضع سنين بالمدرسة. وخرج إلى الدنيا بساعد فولاذي..

لم يفطن مرزوق إلى سنوات حياته وهي تسرق منه. إذ كان يفنيها عاملا يوميّا بأجر زهيد، ينفقه من أجل عيال خمسة، وشيخ بائس عاجز..

بدأ مرزوق يهرم، وكبر العيال وأصبحوا رجالا بوظائفهم. وكان مرزوق هرما بلا أيّ شيء لنفسه. هرم مرزوق وتراجع ذراعه الفولاذي في أداء واجبه. وقلّ العمل بينما تكاثر طالبوه.. ولم يكن ساعد مرزوق مطلوبا!

يقول مرزوق:" كان عليّ أن أتزوّج، فأنا كما يقول والدي كبرت وصار لزاما عليّ أن أتزوج.. لكن بمن سأتزوّج؟"

ردّا على هذا السؤال، قال والده:" تزوّج بنت عمّك، لن ترضى بفقرك غيرها!"

وقال أحد إخوته:" تزوّج من تحبّ، ألا تحبّ يا مرزوق؟"

ويطأطئ مرزوق خجلا، فهو ريفي ابن ريف لا يستبيح لنفسه مثل هذا الكلام.. الرأي ما قال الوالد، بنت عمي أفضل من غيرها. بسيطة وابنة جلدته. ومرزوق رجل بسيط لا يحبّ النظر إلى أعلى. يخاف إن نظر أن يتوه ولا يعود.. لذلك تزوّج مرزوق وتوكّل على الله.

كانت زوجته امرأة قصيرة، قد أخذ جسمها في الامتلاء بعد. على وجهها مسحة دفينة من جمال بدوي، قلّما أظهره السواك.. ورغم زواجها بمرزوق، لم تنحل المرأة بل زاد جسمها في الامتلاء والانتفاخ رغم العيش الشظف الذي كانا عليه هي ومرزوق زوجها. ومع ذلك لم تكن لتتذمّر، بل شمّرت عن سواعدها لتنجب ستّ بنات وولدين في بضع سنين!!

وفي مقابل ذلك كان مرزوق يكبر ويهرم، إذ كان عمره يشارف الخمسين. وكان ساعده ينحل وظهره يتقوّس لأجل تعب السنين، ولنعم أجر العاملين..

بدأ مرزوق عادة سيئة.. كان مرزوق قد شرع بالاقتراض والتداين، وسرعان ما تعوّد عليه! كيف لا؟ وهو قد تحوّل من عامل يومي إلى عامل أسبوعي ثمّ إلى عامل شهري تتلقفه أيام منتقاة قليلة يعمل خلالها بتقطّع وتعب!!

نعم تداين مرزوق، وأكثر التداين حتى كان عليه بيع منابه من الأرض، كنزه الوحيد الذي ورثه عن والديه. وأصبح بلا أرض وبلا عمل.. كان مرزوق يشيخ بلا أيّ شيء، وكان صغاره صغارا لا يكبرون. فهو قد جاوز الخمسين، ولم يتجاوز ابنه البكر عشراً من السنوات!!

هكذا كان مرزوق، عودا احترق ولم يعد له في الحياة "لازمة" فلا أحد يحتاجه الآن بعدما الكلّ كبر، والكلّ توظّف.. فمن ذا الذي يهتمّ لهموم مرزوق؟!!

"كان لي شقيق أنفقت لأجله حتى أصبح أستاذا.. ساعدني عندما توظّف في مصاريف الزواج، وبعد ذلك لم أعرف منه عدا جملة؛ من أين يا مرزوق؟ الله يرزق الجميع.. ويخوض معي في شؤون الحياة الطويلة العريضة، حتى أتركه وأمضي. وترنّ في أذني حكمته؛ الله يرزق يا مرزوق.."

- وأنت يا موظف البنك ألن تساعد مرزوق؟
- من أين يا مرزوق؟ من أين؟ أنا جديد هنا.. لا أستطيع أن أمكّنك من قرض. وإن مكّنتك من قرض، فمن أين ستسدّده!! لا تؤاخذني يا مرزوق، أنا الآن أبني حياتي..

"حياته! من صنع له هذه الحياة؟ ألست أنت يا مرزوق؟ من خلط الاسمنت وكسر الحجر!! من تورّمت يداه وهو شابّ! من دفع يوميّته من أجل الآخر!!"

صاح مرزوق:" أنا محتاج.. لماذا لا تعينوني؟ ألا ترون إلى حالي؟ ألم تحتاجوا مرزوقا وأنتم صغارا؟!! فما بالكم تتركونه الآن!!"

"كان العيال جياعا، وكان عملي متقطّعا لا يفي بغرض المؤونة واللقمة. وكانت الأيام تمرّ وأنا أهرم، ومشاغل العيال تكبر، كما الجميع يكبر.."

- أبي أريد كرّاسا
- وأنا أريد أقلاما
- وأنا أريد سروالا يا أبي، منذ الصيف لم أشتر.
- حذاء!
- آتنا بلعبة يا أبي..

- وأنت، ما تريدين يا زوجتي؟
- سلامتك يا مرزوق

"أعرف أنّك طيّبة وابنة حلال! بنات الأصول يا مرزوق.. هذه المرأة لَكم تزيد عذابي وآلامي!!"

وسط هذا الجو كان يعيش مرزوق. يعيش بلا شيء، ويُطالب بكلّ شيء!!

××××××××××××××××××××××××××××

حاول مرزوق أن يهدأ، لكن عبثا كان يفعل.. فقد استبدّت به خواطر نفسه وهواجس ذاته. "أنا الذي أفنيت شبابي من أجلهم يجري معي هذا؟! لولاهم لكنت تزوجت مبكّرا، ولكان عيالي كبارا!! ولكنت أرتاح الآن في بيتي، مثل بني جيلي.. ابن خالي أكبره بعامين، وهو الآن يرتاح في بيته. وعياله يتعهدونه بالإنفاق والرعاية.."

قالوا إنّ مرزوق معقّد من الأنثى، وقالوا مسكين إنّه فقير لا يجد مالا لأجل الزواج.. وردّد آخرون؛ مرزوق يكسب مالا وفيرا، لكنّه يفنيه في السجائر ولعب الورق.. لاشكّ أنّه سكّير أو "قمّارجي". يا ما تحت السواهي دواهي.. وقال آخرون؛ لا تظلموا الرجل، ربّما كان عنّينا أو عاجزا!!

احتمل مرزوق كلّ الكلام، ولم يعره أهميّة.. لم يعرف الناس عنه عدا ابتسامته العريضة في وجه الجميع.. لم يعرفوا منه عدا الكلمة الطيّبة، والتحية السمجة.. مختزنا داخله عذاب السنين..

اختار مرزوق أن يضحّي من أجل إخوته، لكن لا أحد يهتمّ له الآن بعدما الكلّ كبر وتوظّف.. آه عليك يا مرزوق! لو فكّرت بنفسك لحظة العرق والبرد، لحظة تشقّق اليدين وتورّم الرّجلين.. لو فكّرت في نفسك ساعة!! على الله يا مرزوق، أتركها على الله.. لا تفقد الأمل، مازال أمامك أصغرهم. لطالما قلت إنّه أفضل إخوته. وهو عاقل وفطن يعرف الأصول، لا لن يردّك خائبا. اذهب إليه وتوكّل على الله..

ظلّ مرزوق يمشي ويفكّر.. نعم هو ذاك لا شكّ أنّه لن يكون كالبقيّة. لا شكّ أنّه أفضل.. هو ليس في حياته زوجة ولا أطفال، لا خطيبة ولا صاحبة تفسد الودّ.. إذن لابدّ أنّه سيمكّنني ممّا أريد..

- من؟ مرزوق !! أهلا أهلا..
- كيف الحال؟
- حالي، أم حال العمل؟
- حالك أوّلا، حال العمل ثانيا..
- كل شيء سيّء.. الحمد لله وكفى

- لِم تقول ذلك؟ ماذا هناك؟
- ديون يا مرزوق.. الكلّ يريد ماله، والمؤجّر يسأل كلّ يوم عن أجرة المحلّ، وأنا متأخّر.. شهرين لم أدفع. سترنا الله يا مرزوق، هل كنت تريد شايا أم قهوة؟!
- لا شاي ولا قهوة، سلامتك..
- لأيّ سبب زرتني يا مرزوق؟
- أطمئنّ عليك.. أطمئنّ فقط..

"نهضت والدموع في عيني مبتسما كي لا يراها أحد. التفتّ فإذا بي أراه يضحك.. رأيته يعدّد بين يديه أوراقاً ماليّة، أوراق ماليّة كالرزمة.. حرصت أن لا يراني، وإلى الشارع سارعت خطاي.."

دموع الرجال غالية يا مرزوق، لن يبكيك هؤلاء السفلة.. لا تكرم ذكراهم ولو بسيجارة، سيجارة؟ منذ سنوات لم تدخّن.. من يوم كان عليك أن تعيلهم، وكانت السجائر حجر عثرة في طريقهم.. والآن دخّن يا مرزوق فالسيجارة أرحم.. إنّها تستحقّ ولاءك أكثر منهم!! هذا إذن أصغرهم وأطيبهم.. أين كان مخبّئا لنا كلّ هذا!!

كان العيد يقترب، وكان مرزوق مفلسا. فأجره المتقطّع كان بالكاد يكفي لسداد بعض ما تخلّد بالذمة المهدورة، وبعض القوت كي لا نموت..

العيد يتطلّب شاة للذبح، والشاة تحتاج مالا يُدفع، ومرزوق كان مفلسا.. بقي بضعة أيّام عن العيد، تعلّق أطفال مرزوق بركابه:

- أبي اشتر لنا كبشا يا أبي
- نعم كبشا كأبناء خالي
- بل كأبناء عمي
- بل أيّ كبش كان.. المهمّ أن لا يكون بعض لحم، أو دجاجة

كان مرزوق يتألّم، فهو لم يستطع أن يقول لأولاده صارخا:" إني مفلس.." بل صمت وأطرق يفكّر.. هل أتداين من جديد؟ هل أشحت على أبواب المساجد والمقاهي، وأتربّع في الساحات حتى آتي بخروف في حجم أرنب؟!! من ذا الذي يقرضني؟ أليس من حقّ أطفالي أن يكون لهم أحلام مثل أترابهم؟ أليس لأطفالي الحقّ في كراسات وأقلام؟ لحم و"مشوى"..!!

اختلط الأمر على مرزوق، فأصبح حديثه كالهذيان.. وهاهو يلتقي بالعمدة صدفة في السوق.

- سيدي العمدة اعلم عني المسؤولين.. أنا محتاج، أنا مفلس، لماذا لا تعطوني خروفا مثل الفقراء؟ ألا تنظرون لحالي!!
- يا مرزوق، كيف سأقنع المسؤولين وإخوتك الثلاثة موظفين!!
- كلّ في شأنه يا سيدي.. لا أحد يهتمّ لي، أنا محتاج، تحاصرني الديون والعيد على الأبواب، الأبواب مغلقة.. اللعنة.. اللعنة..

"ماذا بقي يا مرزوق.. حتى الحكومة ملاذ الجميع أوصدت في وجهك بابها! من بقي لك؟ لنعم أجر العاملين يا مرزوق، توكّل على الله.."

وصاح مرزوق:" لا.. لن يحرم عيالي من العيد!!

××

شيء لا يصدّق ذلك الذي حدث البارحة، كان فلاح القرية الكبير كما الجميع نائما، وفجأة علا صياحه:" أنجدوني أيها الناس، أنجدوني.. سارق، خائن!!"

قال الجيران إنّ الدنيا كان يعمّها الظلام، والبرد يلفّ البلدة. كأيّ من ليالي الشتاء، حينما تناهى إلى أسماعنا نباح الكلاب، هرعنا كما هرع الناس إلى الأصوات وإلى الظلام، إلى الزريبة زريبة الأغنام.. وسارع الناس ركضا في الطريق المؤدية إلى الخلاء وراء السارق بعصيّهم وهراواتهم وكلابهم المدرّبة على العضّ.. ومصابيحهم المحمولة، انهالوا على الرجل ضربا، ورأيتهم يوجّهون ضوء مصابيحهم صوب السارق، مدقّقين النظر فيه كي يعرفوه، كأنهم لا يعرفونه.. من؟ مرزوق؟!! مرزوق ذاك الرصين!! مرزوق أبو العيال.. صاحب الساعد الفولاذي!!

ليلة السبت؛ 2006/01/07

خوالج

- لاشكّ أنّك تستريح الآن، وأنا مثلك مرتاح تماما رغم كلّ ما حدث.. ما حدث كان مرعبا ولم يستوعبه أحد سواي!

وحدي أنا الذي قدّرت الأحداث، وأعطيتها ما تستحقّه من الفهم والاستيعاب، وإن كان يحزّ في نفسي أن.. أن..

لاشكّ أنّك تستريح الآن، وأنا مثلك مرتاح تماما..

- في ذات يوم حار جلست إليك لأوّل مرة، وأخبرتني ساعتها أنّي سأجالسك ثانية في ذات يوم حار أيضا. وها أنت تفي بوعدك، رغم أنّ هذا اللقاء بك يختلف عن الأوّل كثيرا.. لا يشبهه إلّا في حالة الصمت الذي تطيله، والذي لم أجد له سببا مقنعا لخمس سنوات خلت.

أمّا الآن فإني أجد الأسباب الكافية لأبرّر صمتك، بل إنّي أجد سببا واحدا يبرّر كلّ شيء.. كلّ شيء حدث.. لكن لاشكّ أنّك تستريح الآن، وأنا مثلك مرتاح تماما..

- على مدى الخمس سنوات الماضية، كنت أتذكّرك وأسمع عنك. وعندما يحدثونني أقول في فخر واعتزاز:" أعرفه.. أعرفه.. جالسته مرّة. مرة واحدة، لكني أفتخر بها كثيرا.. حتى أمام نفسي كنت أفتخر!!

أمّا الآن فلا أفتخر بلقائنا هذا أبدا كما أنّي في الوقت ذاته لا أشعر بالذلّة أو الضيق. كلّ ما أشعر به أنّي مرتاح.. ولاشكّ أنّك مرتاح أيضا..

- أركبوني سيارة يا سيدي، وكانوا يبتسمون بلطف. بعضهم كان مكتئبا تظاهرًا بالحزن، واقتادوني إلى هنا لكنني كنت مرتاحا رغم كلّ شيء ولاشكّ أنّك تستريح أنت أيضا..
- الواقع أنّي تلقيت عديد الإهانات من أجلك. كلّهم يرفضونني ويقولون عنّي كلاما سيّئا.. يقولون:" إن كنت منك، فلماذا لم آتيك قبل الآن؟" لكنّهم لا يدركون أنّي لم أكن أعرفك قبل الآن. وحتى لقاءنا قبل خمس سنوات كان مجرّد لقاء بين غريبين، وكنت أظنّك متوفيّا يا سيدي، لكن الحقيقة فاجأتني وعصفت بكياني فجأة! مريع هذا الذي عايشت، لكن لاشكّ أنّك تستريح الآن وأنا مثلك مرتاح تماما..
- من الصعب أن أجاملك وأقول إنّك الآن تحظى باحترامي، أو ثقتي. لأنّ ما فعلتماه لا يمكن غفرانه أبدا.. أنتما قد أسأتما إليّ كثيرا. كان عليّ أن أعرف ما جرى بالضبط إذ ليس من الطبيعيّ أن تخفيا عني الحقيقة..

الحقيقة التي كانت مرّة بقدر ما بدا لك أنّها ستسعدني!!

يا لك من ساذج! إنّ ذلك لا يدخل عليّ السعادة أبدا، رغم أنّك السيد المشهور.. رغم أنّك محبوب الناس.. تشرفت بلقائك، وعشت خمس سنوات على أطلال ذلك الشرف. لكن من غير المعقول أن أوهمك أني سعيد بهذا اللقاء، بل على العكس!! إني حزين ومستاء.. لكني مع ذلك أتصوّر أنّك مستريح، وأنا مثلك مرتاح تماما.

- إنّي لا أستاء لأنّك تطيل الصمت، لا أستاء لأنّك مغمض العينين، لا أستاء لأنّك ممدّد وملقى كالخرقة البالية.. مستاء لأنّهم أوهموني أنّك ميّت منذ زمن بعيد.. أنت تقول إنّه ليس لك ذنب، فأمي هي التي أرادت ذلك. ولكني أستاء من الجميع لأنّكم.. لأنّهم أرغموني على العيش لخمسة وعشرين عاما من عمري داخل الوهم..

كنت تنوي أن تلقاني وأنت في حال أفضل من هذه الحال، لكني أرى أن المشيئة اختارت الأصوب لي ولك.. نعم نم مرتاحا إذن، ولا تشكّ لحظة أنّي مرتاح مثلك، مرتاح تماما..

- يتقدّم الآن كلّ الناس نحوي.. يأتي في البداية المقرّبون منك، أمّا المقرّبون مني فهم منبوذون ومبعدون عنك كما أنبذ وأبعد.. لا تقلق، سأحملك على كتفي، وأدفنك بنفسي، وأقرأ وأصلّي على روحك. لكن لا تطمع بالمزيد.. أتحدّاهم، وأقف ضدّهم في هذه من أجل شيء لن تفهمه..

لكني سأستسلم راضيا في غيره من الأمور. فليفعل هؤلاء بمالهم وأملاكهم ما يريدون. لأنّه لا يمكنني أن أترك "الحوش العربي" والحيّ الشعبي الذي تعودت عليه، والناس البسطاء الذي عشت معهم من أجل عالمك الذي لم أعرفه إلّا الآن!!

آسف يا أبي فأنت ميّت داخلي منذ زمن، وأمي التي طلقتها ماتت أيضا منذ سنتين. وأنا الآن ميت أيضا. لكن لا شكّ أنّ الجميع ينعم بالراحة تماما..

2008/02/26

مصادفة

منذ البداية جذبتني نظارته السوداء التي بدا لي أنّه يحدّق بي من خلفها.. هذا الوقار المهيب، وهذا الاعتدال في جلسته، أوحى إليّ بأنّه رجل مهمّ! ملامح وجهه المرنة المشربّة بحمرة كالصبايا، وابتسامته التي لم تفارق وجهه لنحو ساعة. خيّل إليّ أنّ نظراته لا تفارقني من خلف نظّارته، وشيئا فشيئا اعتراني الحرج وتمكّن بي الارتباك. لماذا يطيل إليّ النظر؟! هل تراني أثرت إعجابه؟!!

لقد سهى عن قهوته، فلم يرتشف. وعن سجائره، فلم يدخّن. بل واصل التحديق بي من خلف النظارة!! ما يريد يا ربي؟ هل هو مجرّد تخمين أحمق مني أملاه عليّ هواي وضعف نفسي أم هو حقيقة؟ لعلّ شروده في التفكير خيّل إليّ ذلك؟ هل يبدو هندامي جيّدا!! إنني بثياب العمل، لذلك يُفترض أن أكون في أفضل حالات أناقتي.. ولا أرى أنّ السنين قد فعلت فعلها بي فجعلتني ذابلة كوردة عجوز لا تثير إعجاب أحد!!

لكني كنت قد تزينت بمكياج خفيف كالعادة أراه كافيا لإثارة الإعجاب.. غيري من النساء يجعلن من وجوههنّ لوحة زيتيّة ممّا ينفّر العباد من هنّ.. لا أحبّ هذا النوع المتحذلق من النساء، إنّهنّ منعوتات دائما بسوء السمعة..

لكن نظراته لا تفارقني! هل أتقدّم منه وأكلّمه، ثم أرى؟! فلعلّه كان يعرفني، وكنت أنا قد سهوت عن ذلك..

××

هذا اليوم حارّ، جلست في المقهى المعتادة لي وشردت.. أحسست أنّ بصري مركّز على شيء ما، رجل أو امرأة أو حيوان أو شجرة، أو ربّما مجرّد طاولة.. لكني أحسست بحرارة هذا الشيء تلطّف حرارة هذا الجو!! واصلت شرودي وسهوت عن قهوتي وسجائري، أفكّر بإخوتي الذين تخلّوا عني في وقت كنت أحتاج إليهم فيه.. أفكّر في حالي بانزعاج لا يراه الناس، فأنا من فرط همي تشرق أسارير وجهي، ويرتسم على ثغري الابتسام!! لا أحبّ الشفقة، لكنّ الناس بحرصهم عليّ يؤذونني.. نادل المقهى يصرّ ألّا أدفع ثمن قهوتي، الناس الذين يبتاعون مني شيئا أعني حلوى أو علكة يدفعون مالا أكثر من ثمن البضاعة الحقيقي، ويتركون البضاعة لي!!

أقدّر شعورهم لكني لا أحبّ فعلهم.. إنّهم لا يعاملونني كإنسان عاديّ، بل كصاحب عاهة مثير للشفقة.. لكن مع ذلك لابدّ من الابتسام..

××

يا الله على الحرج! يا الله على ارتباكي! مازال يبتسم ابتسامته العريضة.. إنّه ليخيفني فعلا بنظراته المطوّلة نحوي.. أنقذني يا ربي، لقد سجنني بنظراته فلم أعد قادرة على فعل شيء، بل إني لا أقدر على الحراك.. كلانا ترك قهوته تبرد، كلانا ينتظر الآخر.. لكن العرف عندنا أن يتقدّم الرجل ليعبّر عن إعجابه بالمرأة لا العكس.. لكنّه لا يفعل شيئا غير التحديق بي.. إني لحيرى.. كيف أتصرّف إزاء هذه المشكلة. رجل يجمع بين الجرأة والخوف؟! أليس من الممكن أن يكون له مقصد آخر غير ما ذهبت إليه؟!!

××

ترى ماذا يفعل الناس حولي الآن؟ وفي أيّ فلك تدور أحاديثهم؟ هل يتكلمون عني يا ترى؟ ينظرون إليّ بإشفاق! لعلّهم يقولون ويردّدون مسكين، مسكين، فرّج الله كربه!! يا لهؤلاء الناس، أعجب ما في الأمر أنّي أحبّهم وأكرههم في نفس الوقت!!

هل من الممكن أن أثير إعجاب امرأة دون إشفاق؟! كيف أضمن الإعجاب وأنا أعمى؟ وهلّا ما تزال في هذه الدنيا نساء حكيمات يقدّرن في الرجل دواخله؟!

على كلّ حال، أرى أني رجل لا يعيبه شيء. فأنا وإن كنت ضريرا، فإنّ جيبي لا يخيب. وكما قال الأولون:" أسود فحم، يأتيني باللحم." ولا يعيب الرجل إلا جيبه. كما أنّ ثقافتي عالية وعقلي يزن بلدا كما يقال.. لكن لماذا لا يرون فيّ غير عاهتي؟!! ربّما لأنّ النساء يحبذن كلام العيون، والعالم الخيالي الذي يبنيه الشعراء على سبيل التخريف، ويسمونه إنشاءً. وهذا طبيعيّ، فالشعراء يتبعهم الغاوون، والفاشلون، وفي الوديان يهيمون.. لكن ما شأن النساء بكلّ هذا؟!!

ربّما لأنّهنّ يحببن أن يكنّ مدار الحديث.. ربّما لأنّهنّ يحببن أن يكون الرجل كالشاعر يسكنهنّ عالما من الخيال.. لكنّي لا أرى هؤلاء الرجال الشعراء!! وليس ذلك لأني أعمى، بل لأنّ النساء المتزوجات ليعانين أشدّ العناء من جفاء أزواج كانوا شعراء، ثم صاروا بعد العقلة جلادين!!

ربّما لأنّ الإنسان يندفع بقوّة لينال شيئا يحلم به، لكن ما إن يناله حتى ينتابه فتور ألعن من اليأس..
إنّ كلّ رغباتنا السامية لتنقلب رغبات حمقاء بمجرّد أن نحقّقها.. آه! ما بال عقلي يسرح على نحو عجيب! ألا يجدر بي أن أقوم إلى عملي..

×××××

آه! لقد انتبه أخيرا إلى أمره، وأشعل وارتشف.. صار لزاما عليّ أنا أيضا أن أنتبه. إني أكاد أتأخّر عن عملي، لأنسى هذا الأمر وأعتبره مجرّد موقف عاديّ من مواقف الحياة الغريبة التي تفاجئنا كلّ يوم..

آه! لكنّه ليس بالحدث العاديّ أبدا، لأنهض إلى عملي مستغفرة ربّي..

2008/06/19

جريمة قتل

الساعة الثانية صباحا:

وجدوه يتلوّى في دمائه.. كان يئنّ، ما يزال حيّا، وجدته دوريّة الأمن قريبا من الحانة. وتمّ نقله على وجه السرعة إلى المستشفى..

الساعة الثانية وعشرين دقيقة:

تمّ إلقاء القبض على كلّ من في الحانة، وشوهدت سيارة الأمن الكبيرة وهي تنزلهم عند مركز الشرطة، وبدأت التحقيقات..

الساعة الثالثة صباحا:

كان قد توفي.. لقد نزف كثيرا لمدّة ساعتين تقريبا دون أن ينتبه له أحد.. كان الشارع خاليا من المارة، فالمكان مهجور، قليل الحركة والوقت متأخّر.. لقد كانت الطعنة قاتلة، المسكين توفي في ريعان الشباب!!

الساعة السادسة صباحا:

تمّ التعرّف على الهالك، وقد تمّ رسميّا استدعاء أهله لرؤيته. وهو حسب البيانات؛ شاب أسمر طويل، معروف بتسكّعه الليلي الكثير، سكير لا يعمل، وصاحب سوابق.. أمّا عائلته فهي عائلة فقيرة تسكن منزلا كالزريبة على وجه الفضل..

الساعة السادسة وبضع دقائق:

ناحت أمّه وعوت، كان الخبر مزعجا.. بكت حتى أصابها الدوران، واضطرّ الأطبّاء إلى تخديرها لذلك ارتاحت جنبهم بضعة أيام! أما الوالد فكان وجهه مكفهرّا وشاحبا.. لم يعلّق كثيرا كأن لم يتأثّر.. اكتفى بعبارة "ولد حرام.. أولاد الحلال!!"

الساعة السابعة صباحا:

في المركز، مركز الشرطة، كان هناك سبعة رجال تمّ جلبهم من الحانة، وقد قالوا في التحقيق ما يلي:

- أنا لم أره ليلة البارحة
- وأنا لم أنتبه لأحد.. كان المهم عندي أن أنسى مشاكلي وهمومي.. لم أكن لأنتبه لما يجري حولي

- لو كنّا نعرف أنّ هناك جريمة ما كنا غادرنا ديارنا..
- أنا لا أعرف ذلك الشارع أصلا
- وأنا لا أجرؤ على المرور منه، أهل ذلك الحي خطرون، وكلّهم مجرمون..
- أنا غير متعوّد على جو الحانة، لم أسكر إلا مرات قليلة..
- وأنا متعوّد على الجو.. لكني لم أؤذي يوما أحدا، إنّ ذلك لم يحصل قط.. فأنا رجل مثقف.. ألست رجلا مثقفا؟

الساعة السابعة والنصف صباحا:

لم تظفر التحقيقات بشيء، وقد تم إطلاق سراح الندماء السبعة على أن تبدأ التحقيقات من جديد، ومن زاوية أخرى..

الساعة الثامنة بعد:

اهتزت المدينة وزلزلت.. الكلّ سمع بالخبر ولم يصدّق.

- كيف حدث هذا؟ أيمكن ذلك؟
- "البار" هو رأس البلاء، لولا أن أغلقوه..
- الشباب.. الشباب هو الفساد عينه..
- الله يستر..

كان الخبر مفزعا حقّا ولم يصدقه الناس بسهولة.. لقد فاجأ الأمر الجميع. جريمة قتل في بلدتنا الهادئة الصغيرة!! كيف يمكن أن يحدث هذا؟ وهل فعلا توجد أحياء خطرة في بلدتنا؟!!

- الشرطة لا تقوم بواجبها..
- الشرطة لا تتدخّل إلا عند وقوع المصيبة..
- نعم الشرطة لا تستطيع الحيال دون وقوع المصيبة..

عُرف الهالك بتسكّعه الليلي وعربدته إذ لم يكن له عمل يشغله عن ذلك، ولم تكن له خصوم على ما يبدو. فشلة الشر كانت منه وهو منها إذ احترف الجميع التسكع..

الساعة العاشرة صباحا:

تم استدعاء والده للتحقيق.. أجلسوه قبالتهم.. كان يدخّن سجائر كثيرة دون أن يتكلم ولم يمنعوه، فقد كانوا مقدرين لحاله..

- "وسع بالك أمر ربي"
- ونعم بالله
- ابنك الهالك.. "ما عندوش مشاكل"
- العلم لله
- فلوس، طفله، عركة..
- العلم لله

لم يجد التحقيق نفعا. كان الأمر محيّرا ولم يكن بإمكان أحد أن يدلّ الأمن على دليل واحد يدين المجرم، ولم يكن هناك متهم واحد أصلا.. حقيقة إنّه يوم مشؤوم هذا اليوم..

الساعة الثامنة ليلا:

فُتحت الحانة.. لا للعمل بل للتفتيش والبحث.. بحث الأعوان فوجدوا بمحض الصدفة شقف مكسور لقارورة، مرميّ في سلة المهملات..

تناوله أحد الأعوان بحرص بينما تواصل التحقيق.

- الهالك؟ هل كان هنا البارحة؟
- نعم، طلب زجاجة وأخذها خارجا.. قال إنّه مختنق من جو الحانة. كان حريفا عزيزا فسمحت له بذلك! مكث بضعة دقائق أمام الباب، ثم اختفى بعد ذلك.. لم أكتشف ما حصل إلا عندما أتيتمونا
- "الشقف هذا"، هل له صلة بالموضوع؟
- "ما ندريش"
- "واش معناها ماتدريش؟"
- من المحتمل أن يكون له صلة.. هذا الشقف كسره الهالك على رأس أحد مرتادي الحانة، يكنّى ب"بعبوط". "كانت عركة مشهودة يا سيدي"
- "ما سمعناش بيها"
- لم نشأ إزعاجكم، أنهينا الموضوع سلميّا..
- سننظر في هذا لاحقا..

أغلقت الحانة. أغلقت لتبقى كذلك مدّة قد تطول إلى حين غلق ملف القضية..

اليوم الموالي؛ الساعة الثامنة صباحا بعد:

وصل تقرير الطبيب الشرعي، وقد أكّد أنّ الهالك مات بطعنة أسفل القلب. والحقيقة أنّ الطعنة لم تكن قاتلة، ولكنّ نزيف الدم هو الذي جعل الحالة تسوء حدّ الموت. وقد وجدت بصمات "بعبوط" على بطاقة الهويّة للهالك..

الساعة التاسعة صباحا:

تمّ القبض على بعبوط الآن، وقد تمت مجابهته بالأدلّة:

- كلّ الأدلّة ضدّك يا بعبوط، يجب أن تعترف..

كان بعبوط ما يزال مثمولا، كان النعاس يداعب جفنيه، وكأنه لم يستوعب الأمر جيّدا..

- أعترف! بماذا يتعيّن عليّ أن أعترف؟
- بجريمتك، لا تراوغ.. قل إنّك القاتل!!
- يا ويلي! قاتل ! أنا قاتل؟!! قاتل من؟
- اعترف بجريمتك، ليلة أول البارحة.. لقد وجدنا شخصا مقتولا..
- وما دخلي بالأمر؟
- أنت متهم بقتله!
- لم أنا؟
- لأنّنا وجدنا بصماتك على بطاقة هويته، ولأنّك كنت قد تخاصمت معه في الحانة قبل أسبوع..
- آه! تذكرت.. ذلك الأخرق، هل كان مات؟!!
- قلت لك لا تراوغ، إذا واصلت في إنكارك..
- ماذا إن واصلت في إنكاري؟!!
- لقد نفذ صبري، خذوه إلى الحبس..

استغرب الأعوان بلادة بعبوط الذي كان باردا وغير مبالٍ.. إنّ هذا الأمر مدوّخ، من القاتل إن لم يكن بعبوط؟!!

الساعة العاشرة صباحا من نفس اليوم:

كيف فات الأعوان ذلك؟! يجب تفتيش منزل الهالك علّنا نعثر على شيء ما يدلّنا.

اقتحموا المنزل.. نسوا أن الوقت غير ملائم للتفتيش، فقد كانت عائلة الهالك تقيم جنازة ابنها.. نسي الأعوان أمر التفتيش، وتظاهروا بتقديمهم للتعازي..

الساعة منتصف النهار:

انتصف النهار ولم تصل الشرطة إلى أيّ شيء يمكن أن يوصلها إلى حل.. جابت الدورية المدينة.. كان الناس يتساءلون.. هم حيرى لأن الموضوع محير وغريب.. لأنّ ذلك لم يحدث قبل الآن قط..

أصاب المدينة خبت، فاختفت الحركة وقلّت. وخاف الناس فحضروا تجولهم بأنفسهم..

الساعة الثانية ظهرا:

فتّش الأعوان منزل الهالك فلم يعثروا على شيء ذا قيمة لكنهم وجدوا في الغرفة رسالة، كان الهالك قد خبّأها باهتمام، كتب فيها "أتمنى أن أجد عملا محترما عندها يتسنّى لي أن أتزوجك وأتوب عن كل حياتي السابقة.. عندها أرضي الله ووالديّ.. المخلص دائما.

احتار الأعوان.. من المقصودة في الرسالة؟!! إنّها رسالة لم ترسل على ما يبدو.. غير أنها أول خيط قد يوصلنا الى الفاعل!!

الساعة الثالثة مساء:

أخرجوا بعبوط من الحبس، لا ليطلقوه بل ليتجدّد البحث

- بعبوط، ما سرّ البصمات يا بعبوط
- أيّة بصمات؟
- بصماتك موجودة على بطاقة هويّة الهالك، لماذا لا تريد أن تعترف أنّك الفاعل؟
- أرجوك صدّقني.. لم أر الهالك منذ "العركة"، ولم أعلم بمقتله إلا ساعة القبض عليّ.. لقد كنت أسكر في البيت وأنام.. أنا لم أخرج قط.
- هناك من شاهدك في "البار" ليلة الجريمة
- كنت أقتني ما يكفيني لقضاء يومين أو ثلاثة بعيدا عن الناس
- ألم تر الهالك ليلتها؟
- لو رأيته لكنت حطّمت أنفه
- إذن ما سرّ البصمات؟
- لا أدري عن أيّة بصمات تتحدث، قلت لك أنا لست القاتل، أنا لست القاتل..

أعيد بعبوط إلى الحبس، وبقي الشرطيّ يفكّر..

ليس هناك من دليل واضح ضدّ بعبوط، ولكنّه المتهم الوحيد.. على كلّ سوف ترى المحكمة أمرها..

اليوم الثالث، الثامنة صباحا:

أعيد استدعاء بعبوط،

- هيا يا بعبوط، قلّنا ما سرّ البصمات؟ لقد نفذ صبري معك
- لكن يا سيدي
- بعبوط، ساعدنا إن كنت بريئا.. إنّك تورّط نفسك بإنكارك هذا..
- البصمات يا سيدي.. سر بصماتي، هو مروري من هناك حينما كنت مفلسا رأيته يتلوّى ويصيح؛" أنجدوني، أنجدوني.." اقتربت قصد استجلاء الأمر، فرأيت شبح رجل يعدو في الظلام خائفا، كانت معه سكينا يحاول إخفاءها.. كنت أحاول اللحاق به، لكني خفت.. خفت وتراجعت! ما الذي سأجنيه؟ ماذا لو قتلني أنا الآخر؟
عدت إلى الجريح، أدخلت يدي وفتّشته ببرودة.. كنت أعرف أنّ المكان خالٍ من المارة.. فتشت حتى وجدت محفظته.. كانت بها بطاقة هويته، قرأت بياناتها وعرفته.. وجدت معها عشرين دينارا.. أخذتها، ودلفت إلى الحانة، ثم نسيت الأمر تماما..
- لماذا لم تبلّغ.. كان يمكن إنقاذه ساعتها!!
- لم أكن متأكّدا من نجاته.. خفت أن تشكّوا بي، إذا مات، حيث لم تكن علاقتي بالهالك جيّدة..
- ألم تتعرّف على القاتل؟
- بلى.. أعني لا لا، لا أعرف..
- بعبوط، إن لم تخبرنا الحقيقة، أنت من ستتورّط
- أنا لا أعرف القاتل، لكن صفاته ليست غريبة عليّ
- كيف كانت صفاته؟
- لم أتبيّنها جيّدا.. كان الظلام يلفّ الدنيا، لكن بدا لي في بضع الضوء قبل أن يختفي، قصير القامة، عريضا ومفلطحا!!
- صفات من هذه؟
- إنّها صفات "الجنبلاط"
- الجنبلاط؟!!
- أجل، الجنبلاط صديقه. أعني أنّه منحرف مثله..

الساعة التاسعة صباحا:

بدأت الأمور تتضح.. عندما زارت الشرطة منزل عائلة "الجنبلاط"، لم يجدوه هناك. قال والده إنّ إبنه غادر البلدة إلى العاصمة منذ أسبوع، أي أنّه لم يكن حاضرا ساعة الجريمة. غير أنّ الأعوان لم يصدّقوا هذا الكلام، وبادروا بالتفتيش.. لم يجدوا شيئا ذا قيمة، غير أنّهم وجدوا أخت الجنبلاط مشوهة الوجه، فسألها الشرطي:" آشبيه وجهك؟"

وسرعان ما تدخلت الأم:" سقطت يا سيدي سقطت.."

وقال الأب:" إرتطم وجهها بالسطح فتورّم!!"

وقال الشرطي بلهجة العارف:" وانت آش تقول؟"

- هام قالولك

كان بادٍ عليها التعب والحزن، وكانت عيناها المنتفختان من البكاء تنبأ عن سرّ خفيّ..

التاسعة والنصف بعد:

تمّ أخذ أقوال عائلة الجنبلاط وتسجيلها في محضر رسمي، وصدر منشور تفتيش بشأن الهارب..

الساعة العاشرة بعد:

قال أصدقاء الهالك في التحقيق، أنّ علاقته بالجنبلاط كانت حميميّة، إذ كانا يشكّلان ثنائيّا فريدا.. وكان الجنبلاط موطن الأسرار، لكنّه اختفى وترك وراءه سرّا غامضا..

منتصف النهار من يوم آخر:

تمّ القبض على الجنبلاط، وكان قد بدأ التحقيق معه:

- لماذا كنت سافرت؟
- لقد مللت حياة العبث هذه.. سافرت للبحث عن عمل يسمح لي بتجاوز حالة الكساد التي أنا عليها..
- لم تفكّر بالعمل إلا تزامنا مع مقتل صديقك..
- صدفة، مجرّد صدفة.. ثم إنني سافرت قبل الجريمة..
- متى سافرت؟

- قبل يومين من الجريمة
- هل لك ما يثبت؟
- وهل لك ما يثبت العكس؟! هل أنا متّهم في هذه القضية سيدي؟
- نحن نحاول أن نجد الحقيقة
- إذن ابحث عنها عندي غيري.. أنا لا دليل ضدي، ثم إنّه ما من سبب لأقتل صاحبي..
- هناك من رآك ليلة الجريمة تعدو في الظلام!!

احمرّ وجهه وارتبك، أخرج علبة السجائر.. كان مرتبكا فلم ينتبه إلى ورقة صغيرة سقطت من جيبه، انتبه لها أحد الأعوان فأخذها وناولها للمحقّق مما زاد في اضطرابه..

- كيف ذلك؟ من الذي رآني؟ كيف يكون ذلك وقد كنت في العاصمة حينها؟!!

فرك المحقّق الورقة وقال:" لا يبدو ذلك.. هذه الورقة تثبت العكس!!

- .....
- تذكرة.. تذكرة حافلة، ألم تسافر بالحافلة؟
- .....
- سافرت ليلة الحادثة، ركبت الحافلة في الثالثة صباحا، أليس كذلك؟
- .....
- لماذا إذن كذبت علينا؟
- .....
- اعترف بجريمتك يا هذا، لماذا تضيّع وقتنا؟ لن يفيدك الإنكار..
- نعم لن أخشاكم، أنا يا سيدي.. أنا هو القاتل.. قتلته لأنّه نذل.. زعم أنّه صاحبي ثم لعب بذيله مع أختي.. صحيح أنّه صاحبي، ولكني رجل صاحب شرف وكرامة أيضا.. أنا رجل شريف، ألا يحقّ لي أن أدافع عن شرف عائلتي.. ألست رجلا شريفا؟!!

××

قال الجنبلاط في التفاصيل أنّه اكتشف خيانة صديقه مع أخته.. قال إنّه رأى صورة لأخته في بيت الهالك، وتساءل:" إذن كان صديقي خائنا! والفتاة التي يتحدّث عنها دائما هي أختي.. جابهت أختي فأنكرت، لكني لم أصدقها.. ضربتها حتى شوهت وجهها وجسدها، وعندها اعترفت لي بالفم الملآن.. واصلت ضربها حتى جاء الوالد وصرفني.. خرجت إلى الحانة وقد كنت غاضبا جدّا.."

ليلة الجريمة الساعة العاشرة ليلا:

كان الجنبلاط قد تسلّح بسكين، كما كان يفعل كل ليلة.. فللجنبلاط سكينا يستعملها في إرهاب الناس لأجل "تدبير الراس"، ولأجل الدفاع عن النفس أحيانا.. أمّا في تلك الليلة فقد كان التسلّح لأجل الهجوم، الهجوم من أجل الشرف.. كان دمه يغلي، كان غاضبا وثائرا.. دلف إلى الحانة وشرب حتى سكر..

الساعة الواحدة زوالا من يوم القبض على الجنبلاط:

قال الجنبلاط استتباعا للتحقيق:" ...رأيته حينما كنت أسكر في الحانة، كان قد تزوّد بقارورة وخرج.. تبعته دون أن ينتبه لي ودون أن أنبس.. كان من عادته أن لا يلتفت، فهو دائم الاطمئنان.. تبعته حتى وصل مكانا مهجورا.. لم أشأ أن أواجهه، خيّرت أن أطعنه من الخلف، لكنّه استدار في آخر لحظة.. كان طويلا، طعنته بقوّة أسفل القلب، ارتبكت.. تركته يسقط وهربت، وسمعته يناديني معاتبا:" جنبلاط، هكة يا جنبلاط!!"

كنت فزعا، عدوت في الظلام، ثم ركضت إلى البيت، ومنه إلى المحطّة.. أما السكين فتركتها لأمي التي غسلتها حتى بدت عاديّة تماما.."

الآن الساعة الثامنة ليلا من يوم ما:

عادت الحياة عادية تماما كأنّ شيئا لم يكن، فالكلّ نسيَ الأمر. وعاد للحانة جوّها وللبلاد أمنها.. كلّ شيء عاد عاديا وغير مستراب وغير مؤثّر. حتى غياب الثلاثة عن جو المدينة لم يؤثّر في المدينة..

الثلاثاء؛ 2006/01/17 نحو الساعة العاشرة ليلا..

كاتب بلا قلم

.. كنت أكتب ومازلت أكتب وأنا عازم على الكتابة هذا اليوم.. لكني أضعت قلمي!

كاتب بلا قلم؟! أليس هذا مثيرا للدهشة؟ يبدو الأمر سخيفا.. لكنكم لو سمعتم قصتي لعذرتموني.. بالأمس ناداني صديق غير مقرّب لأشاركه شرب الشاي، وبعد لحظات من الجلوس معه أضعت قلمي..

أمر غريب فعلا، ولكنّه يبدو عاديا أيضا. إذ كثيرا ما نضيع أشياء هامة دون أن نشعر.. زوجتي مثلا أضاعت قرطا ثمينا في حفلة، وإلى الآن لا تعرف عنه شيئا. أما أنا فقد أضعت أوراقي الشخصية وأصبحت بلا أوراق! كان الأمر محرجا وأنا أكلم المسؤولين عن الحادثة.. الغريب أنهم ضحكوا من الأمر ولم يبدو لهم مزعجا إطلاقا.

ومرة أخرى أضعت كتابا كنت قد كتبته ولم يصل بعد إلى المطبعة، وفي المطبعة ذاتها أضعت نصوصا كثيرة.. يكتفون بالأسف والاعتذار دائما. ولم أكن من جهتي أعير الموضوع على أهميته أهمية.

أما اليوم فلن أسكت عن ضياع قلمي.. يجب أن أحلّ مشكلة ضياعه جذريا وإلّا فما نفعي دون قلم؟!

××

زوجتي امرأة طيبة، لو عرفتموها لأحببتموها.. أنا أحبّها لأني أعرفها، ولأني أعرفها أحبّها!!

إيه يا سادتي، كم هي جميلة زوجتي، وكم هي مجيدة للأحاديث.. بإمكانها أن تقنع أيّا كان بفكرتها مهما كان متحمّسا لأفكاره، أو حويطا.. هذه أشياء بديهية.

قالت زوجتي إنّها ستشتري لي قلما مذهّبا وتحتفظ به عندها.. لكن لا تقلقوا، هي أعلمتني أنّها ستعطيني إيّاه وقت الحاجة، أعني وقتما أحتاجه، أي وقت الكتابة، وقد حدّدت لي للكتابة أوقاتا..

وفعلا نفّذت ما قالت.. وعندما يحين وقت الكتابة تعطيني ذاك القلم المذهب.. أتناوله بيدي المرتعشة وأمعن النظر فيه مدة، وإذا به يسرّني ويبهرني شكله الفريد.. لكني لا أستطيع الكتابة مع ذلك!!

أتراها مسألة اختيار زوجتي للوقت؟

صارحتها بذلك فتفهمتني، وأصبحت تعيرني القلم وقتما أشاء أي وقتما أحتاج إلى أن أكتب..

لكني ما إن أمسك قلمي، عفوا القلم المذهّب، حتى يفرغ ذهني على نحو غريب لم أعهده.. أختفي عن نظر زوجتي وأدخل المكتب، لكني لا أستطيع أن أكتب..

الواقع أني نجحت أخيرا في التحرّر من حالتي غير العادية، وكتبت حين انفردت يا سادتي بقلمي المذهب في الحمام، حمام منزلي أعني!!

الواقع أني كنت سعيدا، فأنا قد تحرّرت على نحو لم يسبق له مثيل، ووجدتني أكتب مثلما أحبّ.. كتبت أشياء كثيرة، لكنّها سخيفة إلى حد الإزعاج!! لم أعد أفهم حتى ما أقوله.. لقد أصبحت غريبا عني!! وأعتقد أن القلم المذهّب هو السبب. لا أفهم كيف، لكني فقدت نفسي حين ملكني قلمي! عفوا، أعني ملكت قلمي حين فقدت نفسي، أعني قلم زوجتي. والحل؟!

الحل سهل، أخذت القلم وأعدته إلى زوجتي. لكنّها فاجأتني بقولها:" ليكن معك دائما، أنت لست طفلا الآن لأحفظ لك أشياءك من الضياع!!

مع زوجتي حق، فأنا لست طفلا. لكني لا أحتمل أن أعيش مع هذا القلم الغريب.. إنّني أكرهه. فهو على شكله الجميل، لا يعجبني.. إنّه يخنقني، لأنّه يكتب ما يريده هو لا ما أريده أنا!! لذلك تناولت القلم الفاخر ورميت به في الزبالة!! لا تستغربوا، فأنا لم أعد أحبّه. والشيء الذي لا أحبّه لا يعني لي شيئا أبدا مهما بدت قيمته غالية بالنسبة للآخرين.. لذلك رميت بالقلم الذهبي في الزبالة، وكنت سعيدا لأجل ذلك.. سعيد جدا! وعندما سألتني زوجتي، قلت بكل بساطة، لقد أضعته.. لكنها غضبت بشدة حتى انتابني الخوف وهي تصيح في وجهي قائلة:" لن تخدعني، ليس من السهل أن يضيع قلم مثل ذاك.. هيّا اعترف، ماذا صنعت بالقلم؟!"

الواقع أني خفت من كلامها.. لقد بدوت كطفل في حضرة معلّمه، وقد ضبطه بلا كراس. ولا أريد أن أقول بلا قلم حتى لا أماثله تماما!! لكني على ذلك صرخت في وجهها، وقلت:" سيدتي، لقد رميت بقلمك في الزبالة.. والذنب ليس ذنبي، لأنّ قلمك المذهّب لا يعجبني. وقد أعدته إليك فرفضت."

زوجتي لم تسكت.. بل احمرّت عيناها، وحدّقت في عينيّ بحدّة أرعبتني. لكني مع ذلك انخرطت في ضحك هستيري لم أفهم إلى الآن سببه، ولا أسباب تصرّف زوجتي الغريب، التي بعد إذنكم، سجنتني في غرفة.. أعني غرفة الحمام! لأقضي بها ليلتي وحيدا، دون عشاء، دون تلفزيون، أو أي شيء آخر..

ماذا؟ كيف قضت زوجتي ليلتها من دوني؟ قضّتها مع كلبها المدلّل طبعا، ذلك الذي أخذ مكاني في السرير، وأعتقد أنّ زوجتي نامت مرتاحة. لأنّ كلبها لا يجيد الكتابة، وبالتالي فلن يزعجها بأوهامه، عفوا أعني أوهامي أنا: كاتب بلا قلم، للأسف..

00:42؛2006/11/17

رجل سعيد جدّا

هذا الصباح غائم وممطر، لكني مع ذلك سعيد.. شيء ما يتحرّك داخلي، لا أعرفه تماما لكني أحبّه. إنّه يدبّ في جميع أوصالي وأجزائي.. إنّه شيء لذيذ أن تكون سعيدا، أليس كذلك؟

××

مالي والحياة لماذا لا أشعر بها إلّا في لحظات قليلة من حياتي! أجل لا تستغربوا يا سادتي، إذ قليلة هي اللحظات التي أشعر فيها أنّي حيّ.. وأغلب الأوقات أشعر أني لا أنتمي لما يسمونه اصطلاحا الحياة. رغم أني أشرب قهوتي وأدخّن سجائري وأتناول طعامي، مثل جميع الناس.. ولكني سعيد هذا اليوم وهذا هو المهمّ.. هذا اليوم أنا منشرح للحياة، لذلك خرجت وأنا سعيد تماما إلى الحياة. أعني فضاءها الواسع؛ الشارع والمقاهي والناس والسيارات والحافلات والعربات..

أردت أن أتمشّى قليلا لكن حركة الناس واكتظاظهم وملامح البؤس الذي رأيته على وجوههم خنقتني وهدّدت سعادتي التي لم أكن مستعدا لأن أخسرها.. لذلك سرعان ما انحنيت لأدخل مقهى.. وما إن دخلت حتى فوجئت باكتظاظ شديد ودخان كثيف يملأ المكان.. اختنقت وكدت أن أفجع في سعادتي لولا أن لويت خارجا بسرعة إلى تقاسيم المدينة التي بدت لي غريبة هذا اليوم!! رغم أنها كانت عادية مثل كل الأيام التي عشتها فيها.. لكن هذا اليوم.. آه من هذا اليوم!

واصلت سيري وسط اكتظاظ الناس وتحركاتهم الخفيفة الرشيقة وملامح البؤس على وجوههم. كنت أتفرّس في وجوه كل الناس واحدا واحدا، رجالا ونساء أطفالا وشيوخا. لكني مع ذلك لم أر أحدا يوليني اهتمامه.. لم يلتفت إليّ أحد، ولم يحدّق بي أحد. كنت في نظرهم مجرد شيء متحرّك يجب أن يتحاشوا الاصطدام به!!

الغريب أني رأيت متسولا متربعا يمد يده لجميع المارة، دون أن يوليهم اهتماما ظاهرا هو الآخر.. غريب، كلّ شيء غريب.. تراني كيف انتميت لحياة هذه المدينة طيلة كلّ تلك السنوات؟ ما الذي يجمعني بهؤلاء غير التحرّك المشترك في هذا الفضاء؟!

كنت سعيدا لأنّ المطر يبلّلني، ونسيت أن أعلمكم أنّ الناس هؤلاء، كانوا مستائين منها. فرأيتهم يسرعون على غير هدى، وكثيرا ما اصطدم بي أحدهم أو إحداهنّ، فأشعر ببهتة لذيذة تماثل سعادتي..

سعادتي؟! آه، يجب أن أسرع قبل أن تختفي..

أسرعت إلى مقهى صغير منزوٍ، وجلست هذه المرّة رغم الاكتظاظ.. جلست لأنّي فعلا كنت بحاجة إلى قهوة بعد هذا المجهود الذي بذلته والذي قليلا ما أبذله. ولم أتمكن بالطبع من الجلوس إلى الطاولة وحدي، بل شاركني فيها أناس لم أوليهم اهتماما. وطلبت قهوة فجاءني بها موظف أنيق عفوا أعني نادل أنيق وصدع في وجهي:" الدفع الآن!" قلت وأنا أضحك:" حسنا، حسنا لِمَ تغضب؟ الدفع الآن."

كانت القهوة غالية مقارنه بسعرها في المقاهي الأخرى أعني تلك التي تعودت أن أجلس بها.. أوه يا أسفي لماذا صرت متوترا هكذا!!

أشعلت سيجارة فنهرني أحد جلسائي الذين لا أعرفهم، وقال:" يا سيد.. يا سيد لا تدخن إنّك تزعجني."

- ماذا أفعل إن لم أدخّن؟ أعني أين أدخّن إن لم أدخّن في مقهى؟!
- دخّن في أيّ مكان، المهمّ ألّا تجاورني.
- إذن أغيّر المكان
- يكون من الأفضل

لم أشأ أن أجهض سعادتي، فأخذت قهوتي وسيجارتي المشتعلة ورحت أبحث عن مكان.. لا تسألوا يا سادتي عن الحرج الذي عانيته وأنا أبحث عن مكان وسط الزحمة حتى في المقهى.. لا تسألوني يا سادتي، ولكم أن تتخيّلوا ما كان يجري داخلي وسيجارتي اللامعة المحترقة تشرف على النهاية، وأخيرا وجدت مكانا حين قام أحد الزبائن وخرج مسرعا، ورنّت في أذني كلمات النادل "الدفع الآن"..

ضحكت وأنا أجلس معتدلا لأشعل سيجارة أخرى، وسرعان ما فوجئت بجليسي ينهرني:

- هاي! ماذا تفعل
- أدخّن
- أعرف ذلك.. لكن لماذا؟ أعني لماذا تدخّن الواحدة تلو الأخرى؟
- لأنّي لم أدخّن الأولى!
- تعني أنها لم تكفك لإطفاء ما بداخلك من حرقة؟
- ....!!
- أعرف كلّ هذه الأمور.. أنا أيضا لا يكفيني أن أدخّن سيجارة كلّ ساعة.. أودّ لو أدخّن طوال الوقت!! لكن أرجوك حافظ على صحتك، هذا أمر خطير..
- فهمت ما تعني.. تريد سيجارة؟ لا بأس، معي علبة تفضّل إن أردت!!
- أنا أيضا معي علبة! بل علبتان!! واحدة شارفت على الانتهاء، وأخرى لم تفتح.. سأفتحها الآن!

"افعل ما تشاء، لكن اتركني لسعادتي هذا اليوم."

لكن الرجل لم يفهم علّتي، وراح يحدّثني عن همومه التي تعرفونها، ممّا اضطرّني إلى سماعه، وإظهار الاهتمام..

أوه هذه الأشياء إنّي أسمعها يوميا من أناس مختلفين.. إنّ ذلك يهدّد سعادتي.. لذلك رحت أبحث عن فرصة للخلاص من هذا الكاتب الدرامي الذي جلس قبالتي مخلطا بين التراجيديا والكوميديا. وهممت أن أصدع في وجهه وأقول له أرجوك دعني.. دعني هذا اليوم. دعوني جميعا لسعادتي!!

وفهمت سر خروج ذاك الرجل الذي ترك لي مكانه مسرعا!! خرج مسرعا؟ وماذا ورائي أنا حتى أخرج مسرعا؟

أمامي الرجل المأساة، وورائي.. ماذا؟!! يا للمصيبة! كيف لم أنتبه! يجب أن أسرع إلى عملي وإلا.. آه، نسيت أن أعلمكم أني تغيبت بالأمس عن عملي، وإن تغيّبت اليوم يصبح الأمر شبيها بكارثة..

لم أعر جليسي أهمية بل أسرعت الخروج..

إلى أين؟ إلى المحطة، ومثل جميع الناس لم أولي الوجوه التي تفرّست بي أهميّة.. كان المهم عندي أن أصل إلى المحطة التي كان الطريق إليها صعبا في هذا الجو الممطر، والمكتظّ. ولكني وصلت أخيرا.. وأُجهضت سعادتي يا سادتي أخيرا بانتظاري للحافلة، التي انتظرتها نصف ساعة ولم تأت ! وإذن لم يعد بالإمكان الالتحاق بعملي، لأني تأخرت بعد وانتهى الأمر.. لذلك أشعلت سيجارة وقفلت راجعا، وكان الطريق ممتعا ورأيت أنّي استرجعت بعضا من سعادتي، خاصة وأنا أتأنّى في مشيتي وأترنّح، وأنفث دخاني كقطار يتخلّص من سمومه وأوجاعه وحرائقه.. وتواصلت رحلتي حتى دلفت إلى بيتي وأوصدت بابي.. تراءى أمام عيني فراشي، بدا كجنّة موعودة.. لم أستطع أن أغالب إحساسي، غيّرت ملابسي بسرعة فائقة، قليلا ما عهدتها في نفسي.. ثم ارتميت على الفراش وخلدت إلى نوم كاسح لذيذ، لذيذ يا سادتي، ولساني حالي يقول؛ لا شيء يماثل النوم لذ.. لذ.. لذّة..

الأحد؛ 2006/11/26، نحو الساعة الواحد ليلا

سمر ليلية صيفيّة

هذه الليلة لطيفة ومرحة.. ليالي الصيف أكثر الليالي بهجة، رغم أنّ السير في ليالي الشتاء كان يعجبني، حيث تقلّ الحركة.. فأستمتع وقتها بوحدتي، وبالهواء اللطيف الذي يلفح وجهي، وبهذه السيارات المجنونة التي أخمّن أنّها تمضي إلى الجحيم حينما يتبدّى لي أنّ سيرها بلا نهاية!!

هذه الليلة مرحة ولطيفة.. ليالي الصيف أكثر الليالي بهجة. لكني لا أخرج فيها إلى الناس لأسهر.. أخمّن أنّ وجهي لا يعجبهم، وأنّ صحبتي لهم لا تروق! أنا.. أنا.. لا شيء، لم أقصد قول شيء! فقط أشعر باختناق بصدري.. أردت أن أبوح لكم بهمومي لأنّي أؤمن أنّ هناك دائما من يطرب لسماع الآخرين بغضّ النظر عن تعاطفه معهم أو ازدرائهم لهم.. ليالي الصيف الحارة ذات النسمات اللطيفة. لا أستطيع أن أقول إنّها تروق لي تماما.. ولكن أرى أنّها الأفضل بين ليالي السنة!

أستأذنكم، ها أنا أملأ كوب ماء لأشرب. طبعا لأنّي ظمآن، ظمآن لأنّنا في الصيف، والصيف حار ولياليه مضنية.. الصيف مزعج لكني أحبّه! أكثر الأشياء إزعاجا هي أقربها إلى نفسي!! أنظروا إلى ما لديّ؛ كتاب يتحدّث عن الأفعال الإنسانيّة: كيف تصبح الإيماءة فعلا؟ كلام جميل، لكني لا أفهمه! وهذا كرسيّ.. كرسيّ خشبيّ متآكل، أخرس لا يتكلّم! لكنّي مع ذلك أحبّه!! وهذا حبل، إنّي لا أحبّه.. إنّه يشبه القيد.. وهذا.. ما هذا؟ مذياع؟! راديو؟!! إنّه قديم.. لا يتكلّم، مجرّد خردة!! سأرمي به بعيدا.. لكن ما سأجني؟! جهد بلا طائل، ليبقى حيث هو.. وهذه عبوة، وهذه علب فارغة، لا أعرف ما فائدتها. ولكنّها باقية جنبي.. وهذه أشياء أخرى كثيرة وشديدة القذارة؛ أحذية، أعقاب سجائر، أوراق تلفة، أدوية فاسدة، محفظة سوداء.. خشب متآكل.. ياه! إنّي وسط القذارة!! يحتمل أن يسكن عقرب هذه القذارة فيؤذيني، ويحتمل أن تزعجني الفوضى.. لكن لا بأس فالذي أعتقده أنّ ذلك لا يعنيني مطلقا، لأنّي منشغل بما هو أهمّ..

هذه الليلة لطيفة ومرحة، ليالي الصيف أكثر الليالي بهجة.. فيها يستمتع الناس بوقتهم، يتجوّلون ويتندّرون ويتفكّهون، ويأكلون المبرّدات، ويشربون العصائر الباردة.. وينتحلون قصص الحبّ ويتآلفون.. لكن في ما يعنيني أنا ذلك؟!

إيه، ما أشدّ حرّ هذه الليلة! لكن لا بأس..

ليس لي ما يبرّد هذا الجو، لكني أرى وأنا في هذه الشرفة أنّي أسعد مخلوق.. أنظروا معي إلى هذا الصفاء، إلى هذه النجوم، وهذا القمر.. لا يبدو الصفاء تامّا، لكني أرى أنّ النجوم تضيء المكان.. بعض

السحب، لكن لا بأس.. أنظروا إلى ذلك الطريق الذي تحفّ به الأشجار من جانبيه.. هل كان سيبدو جميلا لولا القمر؟ هل كان سيظهر أصلا لولا القمر؟!!

يا لساقي العرجاء.. إنّها تؤلمني لأني جلست طويلا، وهو ما حذّرني منه الطبيب. طبيبي غريب، لا تجلس كثيرا، لا تقف طويلا، مدّ ساقك باسترخاء، لا تنسى تدليكها كلّ يوم.. أوف، أقواله غريبة ومتناقضة وغير نافعة أيضا..

وقدمي هي الأخرى تؤلمني لأنّني وضعتها في الحذاء، وربطت عليها منذ الصباح، حينما خرجت لأعمل..

جو الصيف حار منذ الصباحات الباكرة، والتنظيف مهنة عسيرة. لكنّها سبيلي الذي يكاد أن يكون الأوحد لكسب الرزق.. في الصباح يتحلّق الذباب والباعوض حولي.. إيه! يطوف حول رأسي وعيناي وأنفي، ولا يتركني إلّا وأنا كالمعتوه من فرط لسعاته المضنية الحارقة! ثمّ ما يلبث أن يعود، وهكذا حتى ينتهي عملي. فأعود إلى هذا المأوى الحقير، غرفة قذرة فوق السطوح أشبه بقنّ الدجاج، أعود إليها لأتناول رغيف خبز مصحوبا ببعض الجبن أو الزبدة أو الحليب.. ثم ما ألبث أن أنام حين يغشاني نعاس ثقيل من فرط التعب وشدّة الحرّ.. ليس من أنيس لي عدا الذباب الذي يداعب وجهي وكامل جسدي، حتى عند نومي.. أما عند حلول الليل فإنّ أنيس وحدتي هو الليل ذاته!!

يا لجمال الحياة، ويا لروعة ليالي الصيف الحارقة، أعني الدافئة! البارحة كنت أسهر كعادتي حينما لمحت سيارة فخمة تمرّ بحيّنا الفقير هذا. توقفت قليلا ثم واصلت طريقها.. أرى أنّ هذا أمر طريف، لكني أرى في الوقت ذاته أنّه من السخيف إزعاجكم بأشياء لا تعنيكم. وهي إلى ذلك أشياء سخيفة في الواقع.. هل عرفتم الآن لماذا أهجر الناس؟ لأنّي قذر وسخيف، فلماذا إذن أزعجهم بمجالستي لهم؟!! لأترك لهم صيفهم، لأترك لهم حرّهم، لأترك لهم جوهم اللطيف يا لطيف..

هل لكم أجهزة راديو أو تلفاز؟ هل تسمعون لها؟ أنا في غاية الخوف.. ما أسمعه شيء مخيف. خلق كثير يقتل يوميّا في بقاع مختلفة من العالم.. كيف سيتصرّف عمال النظافة إزاء هذا الوضع؟ كيف سيجمعون الجثث المتناثرة؟! وإذا فعلوا، فكيف سيتقون شرّ الأمراض؟!!

المهمّ أنّهم سعداء بما يفعلون. لأنّي أقاسمهم الشعور ذاته.. رغم التعب، ورغم كلّ شيء، أنا سعيد..

هذه الليلة لطيفة ومرحة، لكن يا سادتي أليست ليالي الشتاء أفضل؟!

ليالي الشتاء أيضا لا تعجبني، لأنّها تبدو أثقل.. لكن على الأقلّ لا يقلقني الذباب والباعوض خلالها!! أنا أكره ليالي الشتاء رغم ذلك، فعلى الأقلّ أنعم خلال الصيف بالدفء..

هل تحدثت كثيرا حتى تفوهت بما لا يليق؟! أعذروني يا سادة، لكني عندما أشعر بالسعادة أتكلّم عن دواخلي بكلّ حريّة.. أقول كلّ ما أشعر به، أعني كلّ ما يجتاحني من شعور..

الناس لطفاء، إنّهم يتركون في نفاياتهم أشياء جدّ نافعة.. البارحة مثلا وجدت سروالا جميلا ملقيا وسط الزبالة! هذا السروال الأحمر الذي ألبسه. إنّكم ترونه قذرا لكن لا بأس، لا يبدو رجاليّا لكن لا يهمّ. فالمثل يقول "البس ما ستر وكل ما حضر"..

يا لهذا الليل، ذات مرّة وجدت ساعة منبّه توضع على المنضدة. تلك التي ترنّ! لكن يا أسفي ليست معي منضدة!! سأبيعها لأبتاع لحما.. أليس ذلك أفضل من رنينها بين الحين والحين!! ما فائدة الرنين؟! لو كانت له فائدة، فإني سأرنّ بنفسي مكان المنبّه بين الحين والحين وفي كلّ حين!! يا أسفي على السنين..

مرّ الوقت سريعا ولم أحدّثكم عن أيّ شيء يخصّني.. يا لحماقتي! كلّ ذلك من فرط سعادتي. كلّ ذلك لأنّ الناس يسهرون، يتسامرون، ويمرحون.. أما أنا، فأجلس إلى هذا الليل الساكن الذي يزعجه الناس بضوضائهم.. هاي! دعوا لليل حرمته!

آسف إن كنت أزعجتكم بصراخي، لكن هناك من يستغلّ فرصة هذا السكون ليفعل أفعالا مشينة دنيئة، لكنها سامية في نظره.. وهي عظيمة في نظري أيضا، لكني أقول مشينة مسايرة لما تعارف عليه الناس..

هل تسمعونني؟ إني لا أراكم! مالي لا أراكم؟ حتى أنتم مللتموني؟! مازال في صدري ما أريد البوح به.. ربّما هي أمتع مما سمعتم جميعا.. اسمعوا لي كي لا تندموا لخسارة صحبتي، فأنا رجل مهمّ!! لست مهمّا بالقدر الكافي، لكن لا بأس!!

هذه الليلة لطيفة ومرحة.. لكن ما شأني بها؟ مرحة!! لأتركها إذن لأهلها، فعملي من فجر الغد ينتظر.. لأعد إلى صحبتك أيّها الذباب، أرحّب بكلّ فخر بلسعاتك!!

تونس العاصمة؛ 2007/05/15، نحو الساعة الرابعة فجرا